من وجوه إعجاز القرآن عند الباقلاّني "تأليف المختلف"
مع التطبيق على سورة المزمل

إعداد

عبد الباقي علي محمد يوسف

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في الكلية

مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور العدد الرابع الجزء الرابع ٢٠١٩م

من وجوه إعجاز القرآن عند الباقلاّني "تأليف المختلف" مع التطبيق على سورة المزمل

عبد الباقي علي محمد يوسف
قسم البلاغة والنقد في الكلية

الملخص باللغة العربية

تعد هذه الدراسة محاولة لالتقاط إشارة جليلة قيمة أطلقها علم من أعلام القرن الرابع الهجري، هو القاضي أبو بكر الباقلَّاني – رحمه الله – المتوفى سنة ثلاثٍ وأربعمائة في كتابه " إعجاز القرآن "، حيث نبه إلى واحد من أهم وجوه الإعجاز القرآني الذي لم أقرأه لأحد قبله، المتمثل في التأليف بين المعاني المختلفة في القرآن الكريم، وهذه الورقة البحثية معنية بتطبيق هذه النظرة الكلية من نظرات الباقلَّاني في القرآن الكريم على واحدة من سور المفصل هي سورة المزمل؛ استصحابا لهذا الكتاب العزيز، واستنزالا لأنواره، وتهدِّيا بكلام السلف حول دلائل إعجاز هذا الكتاب المحكم الذي تلقاه مشعل النور – صلى الله عليه وسلم – من لدن حكيم عليم؛ لطمس مشاعل الضلالة والجهل، ورغبةً من الباحث كذلك في طرق خزائن هذا التراث المجيد؛ وما يدريني؟!

لعل الله يفتح بابا من أبواب هاته الخزائن؛ فينعم الباحث ولو بالتقاط واحدة من جواهرها المكنونة، وكنوزها المصونة، ومن أدمن قرع الأبواب يوشك أن يفتح له، وما ذلك على الله بعزيز.

الكلمات المفتاحية : وجوه – المختلف – دراز – الباقلاني – إعجاز القرآن

Abstract

This study is an attempt to capture a great reference made by the flag of the fourth century AH, Judge Abu Bakr al-Baqalani deceased - God's mercy - in the year three hundred and four hundred in the book "Miracles of the Koran", where he alerted to one of the most important aspects of the Qur'anic miracle that I have not read to anyone before This paper is concerned with the application of this whole view of the Baklani looks in the Holy Qur'an on one of the wall of the joint is Surah Al-Muzzammil; this is a companion to this dear book, and an illumination of its lights, and the words of the predecessor about the signs of the miracle of this book. The arbitrator th Who received Meshaal Al-Nur - peace be upon him - by a wise scientist;

Perhaps God opens a door from the doors of these safes;

Key words: Faces – different – Draz – Al–Baqalani – The Miracle of the Qur’an

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على خاتم أنبياء الله، وخيرته من خلقه، وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد،،،،

فقد عرف السلف قيمة الوقت؛ فَتَحَفَّوْا به، فكانوا أشد حرصا عليه من غيرهم على أموالهم؛ فبورك لهم في أعمارهم؛ فأنجزوا فيها ما يُعجز ويُبْهِر[١]، وأحبوا العلم؛ فأودعوه واسطة القلب، وجمعوا عليه نواحي الصدر، وأخلصوا لله فيه؛ وانقطعوا له؛ وتركوا لتحصيله الديار، وأفنوا في سبيله الأعمار؛ لأنهم لم يَقْنَعُوا بالسماعِ للأَثَرِ دُونَ الوصولِ إلى العَيْنِ؛ ولذا فقد كُشف لهم عن خبيئِه المدفون، ودُرِّهِ المصون، وكانوا أذكياء القلوب، حِدادَ الخواطر.

وَقَدْ أَخْلَصُوا لِلْعِلْمِ فَابْتَسَمَتْ لَهُمْ
ضَنَائِنُهُ الْغَرَّاءُ مَمْشُوقَةَ الْقَدِّ
وَرَاحُوا يُرَوُّونَ الْفَسِيلَ فَأَيْنَعَتْ
فَرَائِدُهُ الْحَسْنَاءُ عَنْ طَيِّبِ الشُّهْدِ[٢]

فاجتمع لهم الحسنيان: البركة والفتح؛ فحازوا الفضل من طرفيه؛ لما علموا أن اقتناء المناقب باحتمال المتاعب، وكان من يعاسيب[٣] قافلة الرواد القاضي أبو بكر الباقلّاني[٤] الذي كان لا يعتاقه عن تحصيل العلم لا مال ولا

(١) أَبْهَرَ : إذا جاء بالعَجَب. التكملة والذيل والصلة للصغاني بتحقيق إبراهيم الأبياري ٤٢٨/٢ ط/١ دار الكتب بالقاهرة ١٩٧١م.

(٢) البيتان للباحث من الطويل، وهما من وحي السياق وولائده، وليسا ضمن قصيدة.

(٣) اليَعْسُوبُ: مَلِكُ النَّحْلِ وسَيِّدُهَا. مختار الصحاح للرازي ٢٠٨/١ بتحقيق يوسف الشيخ محمد ط/٥ المكتبة العصرية بيروت ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

(٤) "أبو بكر الباقلّاني: قاض، من كبار علماء الكلام. انتهت اليه الرياسه في مذهب الأشاعرة. ولد في البصرة سنة ٣٣٨هـ، وسكن بغداد فتوفي فيها عام ٤٠٣هـ. كان جيد الاستنباط، سريع الجواب". الأعلام للزركلي ١٧٦/٦.ط/١٥ دار العلم للملايين بيروت ٢٠٠٢م.

ولد؛ بلغ من حبه العلم، وانقطاعه له أنه كان – رحمه الله – "لا ينام حتى يكتب خمسا وثلاثين ورقة من حفظه"(١).

فَأَمَّا مَلَذَّاتُ الْحَيَاةِ وَطِيبُهَا

فَكَانَ بَعِيدًا عَنْ جَنَاهَا الْمُعَلَّلِ! (٢).

كان الحديث عن إعجاز القرآن همه وسدَمَه؛ فجاهد في سبيله، وجمع له جَرَامِيزَهُ(٣)، شاهرا طِرْسَهُ، متقلدا يَرَاعَهُ، صَوَّالا جَوَّالا، مستجمعا في ميادين ذلك الجهاد الشريف كلَّ طِرْقٍ(٤).

فَكَانَ قَوِيَّ الْعَزْمِ غَيْرَ مُضَعْضَعٍ

وَهِمَّتُهُ تَعْلُو عَلَى هَامَةِ النَّجْمِ! (٥).

الْتَاذَ بكتاب الله فكان له خير ملاذ، ورَفَدَهُ إخلاصُه بزاد طيب؛ فكان من أوائل من كتبوا في قضية الإعجاز، عرف القصد؛ فاستقام المَنْسِم(٦)، وروى العود؛ فاستطال النَّسِيغ(٧).

وَرَأَى اللَّاحِبَ الأَبَرَّ؛ فَأَرْخَى

لِجَوَادِ الإِبْدَاعِ كُلَّ عِنَانٍ(٨).

(١) هذا إلى ديانة، وتبتل، وعبادة جعلته لا ينام عن أقل من عشرين ترويحة في كل ليلة. ذكر ذلك صاحب الديباج المُذْهَب؛ فقال:" وكان ورده في كل ليلة عشرين ترويحة ما تركها في حضر ولا سفر، وكان إذا قضى ورده جعل الدواة أمامه، وكتب خمساً وثلاثين ورقة تصنيفاً". الديباج المُذْهَب في معرفة أعيان علماء المَذْهَب لبرهان الدين اليعمري المتوفي سنة٧٩٩هـ.٢٢٨/٢بتحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور طبعة دار التراث بالقاهرة من دون تاريخ.

(٢) هذا بيت للباحث من الطويل، وهو مما جرى به القلم، وليس ضمن قصيدة.

(٣) يقال: جمع لَهُ جَرَامِيزَهُ: "إذا تَقَبَّضَ لِيَثِبَ"، والمقصود هنا أنه استعد للأمر، واحتشد لقصده، وعزم عليه. مجمل اللغة لابن فارس ٢٠٨/١ بتحقيق زهير عبدالمحسن سلطان ط/٢ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

(٤) الطِّرْقُ: القُوَّة. مقايس اللغة لابن فارس ٤٤٩/٣ بتحقيق عبدالسلام هارون طبعة دار الفكر بالقاهرة ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(٥) هذا بيت للباحث من الطويل، وسائر ما جاء في الدراسة منسوبا للباحث فهو من الأبيات الحرة التي جرى بها القلم من وحي السياق.

(٦) يُقَالُ: قَدِ استَقَامَ المَنْسِمُ أَي تَبَيَّنَ الطريقُ. لسان العرب لابن منظور ٥٧٦/١٣ ط/٣ دار صادر بيروت ١٤١٤هـ. ١٤١٤هـ.

(٧) النَّسِغُ: الْعِرْقُ. البارع في اللغة لأبي علي القالي ٣٣٣/١ بتحقيق هشام الطعان ط/١ مكتبة النهضة بغداد ١٩٧٥م.

(٨) هذا بيت من الخفيف، وهو للباحث.

وكان من أشهر مؤلفات القاضي أبي بكر الباقلاَّني كتابه المرقون بـ إعجاز القرآن، ولا بدع أن يمم وجهه شطر القرآن الكريم فهو بشهادة الأعداء لا يوجد سواه على وجه الأرض كتاب سماوي صحيح(١).

وقد عرج فيه على كثير من وجوه الإعجاز، وكان منها مما لم يسبق إليه ما أسماه – رحمه الله – تأليفَ المختلف، وقد أشار إليه، وعرج عليه، وضرب لذلك الأمثال.

وكان من بركات إخلاص الرجل أن هيأ الله له شيخين من كملة هذا الزمان وبُصَرَائه؛ فالتقطا إشارته، وارتشفا رحيقها، وعكفا على تقريبها لناشئة الأجيال؛ فطفقا يستفرعان مسائلها، ويستلقطان جواهرها، ويستروحان نسائمها، ويستبطنان أغوارها، ويستكشفان تحت سراديبها كل خبئ تالد؛ ليستنبتا في عقول الأجيال كل طريف، ولا أعرف غيرهما من يوم أطلق الباقلاَّني إشارته إلى يوم الناس هذا تحدث عن تأليف المختلف كوجه من وجوه الإعجاز على الوجه الذي تناولاه، وبالنحو الذي بيناه.

فأما أول الرجلين فهو فضيلة الدكتور محمد عبدالله دراز(٢) الذي كان – – رحمه الله– بعيد مناط الهمة؛ فقد استوعب عبارة الباقلاَّني حول تأليف المختلف، وأوسعها فهما وشرحا وتقريبا(٣).

وأما ثاني الرجلين فإنه الدكتور محمد أبو موسى الذي كان – وما زال – حيَّ القلب، حديد الذهن، وقد وقف مَلِيّا عند كلام الباقلاَّني حيث أفرد له مبحثا تناول فيه وجوه الإعجاز عند الرجل، ومنها تأليف المختلف(٤).

(١) يراجع في ذلك كتاب: "التوراة والإنجيل والقرآن والعِلْم" للفرنسي: (موريس بوكاي) ترجمة: الشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية صـ ١٤٨ ط/٣ المكتب الإسلامي بيروت ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

(٢) "محمد بن عبد الله دراز: فقيه متأدب مصري أزهري. كان من هيأة كبار العلماء بالأزهر، له كتب، منها (الدين – ط) دراسة تمهيدية لتاريخ الإسلام" الأعلام للزركلي ٢٤٦/٦ ط/١٥ دار العلم للملايين بيروت ٢٠٠٢م.

(٣) يراجع: النبأ العظيم د محمد عبدالله دراز صـ ٢٠١ بتحقيق عبدالحميد الدخاخني ط/٢ دار طيبة بالسعودية بالسعودية ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

(٤) ينظر: الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم للدكتور محمد أبي موسى صـ ٢٠٨ وما بعدها. ط/٢ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

وما على باحث من بأس إن هو عاود النظر فيما كتبه هؤلاء الأفذاذ، وقرأه مرة بعد مرة، ونظر فيه طَرْقَةً[١] بعد طَرْقَةٍ؛ أملا في إحياء ما سطروه، ونشر ما حبروه، ورغبة صادقة في تطبيق هذا الجانب من جوانب الإعجاز المتمثل في تأليف المختلف على إحدى سور القرآن الكريم، وهي سورة المزمل صلى الله عليه وسلم!.

وقد جرت مشيئة الله سبحانه أن يكون البحث مرقونا بـ (من وجوه إعجاز القرآن عند الباقلاني تأليف المختلف مع التطبيق على سورة المزمل)، وقد جاءت الدراسة في مباحث أربعة: مبحث نظري، وثلاثة تطبيقية، فأما المبحث النظري فيجعل كلام الباقلاّني حول تأليف المختلف محط النظر، ومسرح المدارسة، ويقف فيه الباحث مع الشيخين الجليلين اللذين التقطا إشارة الباقلاّني ووقفا أمامها: الدكتور محمد عبدالله دراز، والدكتور محمد أبو موسى.

وأما الشق التطبيقي فمن نصيب سورة المزمل، وقوامه ثلاثة مباحث، حيث يبدأ بتحديد المقاصد الكلية للسورة، منطلقا من ذلك إلى سنن البيان المعجز في التأليف بين المختلفات وتقريب المتباعدات، متهديا بأنوار هؤلاء الأعلام الثلاثة: الباقلاّني، ودراز، وأبي موسى.

وقد سُبق هذان الشقان من الدراسة بمقدمة، وتلتهما خاتمة وفهارس متنوعة، فكانت الخطة على النحو التالي:

(١) الطَّرْقَةُ : الْمَرَّةُ. إكمال الإعلام بتثليث الكلام لجمال الدين الطائي الجياني المتوفى:(٦٧٢هـ) بتحقيق سعد الغامدي ٣٨٩/٢ ط/١ جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

المقدمة، وفيها نبذة عن أهمية الموضوع، ودوافع انتخابه.

المبحث الأول: مهاد نظري.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تأليف المختلف عند الباقلاّني.

المطلب الثاني: تأليف المختلف كما فهمه الشيخ دراز رحمه الله.

المطلب الثالث: الشيخ أبو موسى يلتقط الإشارة، فينصب العلم، ويضرب الأمثال.

الشق التطبيقي للدراسة،

وفيه ثلاثة مباحث مسبوقة بآيات السورة الكريمة، وتمهيد حول معاقدها الكلية.

المبحث الأول: تأليف المختلف في آيات المعقد الأول، ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: الآيات من الأولى حتى الخامسة.

المطلب الآخر: الآيات من السادسة حتى التاسعة.

المبحث الثاني: تأليف المختلف في آيات المعقد الثاني، ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: بين المعقدين الأول والثاني، وبيان معاني المعقد الثاني.

المطلب الآخر: الآيات من العاشرة حتى التاسعة عشر.

المبحث الثالث: تأليف المختلف من معاني المعقد الثالث، ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: بين المعقدين الثاني والثالث.

المطلب الآخر: بين آيات المعقد الثالث.

وقد تبنى البحث المنهج الوصفي التحليلي وفق ما اقتضته طبيعة الموضوع؛ إذ يقوم الباحث بوصف الظواهر البيانية حسب وجودها في الآيات مناط الدراسة، وقد حاول الباحث أن ينقل الخطو على الطريق ذاته الذي سلكه الباقلاّني في تعامله مع الآيات التي عرض لها، وقفاه من بعده كل من د. دراز – رحمه الله –، ود. أبو موسى نضر الله وجهه!.

المهاد النظري للدراسة:

ويتكون من:

المطلب الأول: تأليف المختلف عند الباقلَّاني.

المطلب الثاني: تأليف المختلف كما فهمه الشيخ دراز رحمه الله.

المطلب الثالث: الشيخ أبو موسى يلتقط الإشارة، فينصب العلم، ويضرب الأمثال.

المطلب الأول

تأليف المختلف عند الباقلَّاني

"تأليف المختلف" واحدة من علاقات التناسب، ويُقصد بها – كما يفهم من كلام الباقلَّاني – التأليف بين المعاني المختلفة علي وجه من شريف النظم وعليّ الضم، ولابد من التنبيه بدئيا وآخرا على الفرق بين هاته العلاقة من التناسب "تأليف المختلف" وبين غيرها من علاقات قد يسبق إلى الفهم أنها هي، كعلاقة التضاد.

على العكس تماما، بل علاقة التضاد قد تكون جزءا من تأليف المختلف(١)؛ وتأليف المختلف من البلاغة القرآنية الخاصة التي عدها الباقلَّاني وجها من وجوه الإعجاز، وضرب لذلك الأمثال.

هذا، وقد يكون من الخير الاستئناس بكلام الباقلَّاني – وإن طال – لتكون من عنده نقطة الانطلاق نحو تسوير هذا المصطلح " تأليف المختلف"، والوقوف على مراد الرجل ومقصوده.

يقول القاضي أبو بكر الباقلَّاني، وهو يتحدث عن وجوه إعجاز القرآن واقفا على عتبة الوجه الرابع من وجوه الإعجاز:"إن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع. وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شئ إلى شئ، والتحول من باب إلى باب. والقرآن – على اختلاف فنونه، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة،

(١) يستنبط هذا من الفرق بين التضاد والاختلاف؛ فالاختلاف أعم من التضاد، فكل متضادين مختلفان، ولا عكس، والمتضادان يمنع أحدهما وجود الآخر؛ فلا يجتمعان على محل واحد. أما المختلفان فقد يجتمعان، ولكن "لَا يسد أَحدهمَا مسد الآخر فِي الصّفة الَّتِي يقتضيها جنسه مَعَ الْوُجُود". الفروق اللغوية للعسكري صـ ١٥٧ بتحقيق محمد إبراهيم سليم طبعة دار العلم والثقافة بالقاهرة من دون تاريخ.

والطرق المختلفة – يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد"(١).

اختلاف الفنون، وتصرف الوجوه الكثيرة المختلفة في عبارة الرجل تدل على قصد المعاني وإلا فـ "التباين" و"الاختلاف"، و"التناسب" و"الاتحاد" لو صُرف عنانها جهة الألفاظ لكان ذلك بعيدا عن القصد، قصيّا عن النُّجْعة، ولما كان للباقلاني وجه في عدّ ذلك من دلائل الإعجاز الخارجة عن طوق البشر، إذ الأوساط من أصحاب البيان – فضلا عن الأحوذيين البرعاء – بإمكانهم تحصيل هذا التناسب بين الألفاظ، والاتحاد بينها.

لا بل إن صيارفة البيان من الناس يقع في بيانهم تناسب بيِّنٌ حتى بين المعاني المختلفة، لكن ذلك بمقدار.

أما ما يتحدث عنه الباقلَّاني فهو نوع من التأليف خارج عن المُنَن، فائق كل سَنَن.

يقوِّي هذا الفهم ما صرح به الباقلَّاني نفسه بعدما عرض لهذا النوع من التأليف بين المختلفات، حيث قال: "وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف" (٢).

الجملتان الأخيرتان في عبارة القاضي: " ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف" صريحتان في بيان الفرق بين تأليف المختلف الذي يتحدث عنه أبو بكر وما قد يشبه صورته من "التقابل" أو "التضاد"؛ فالتقابل والتضاد موجودان في كلام الناس، وفي شعر الشعراء لهما موقع حسن، لكن تأليف المختلف أعم من هذا وأشمل، وأدق وأخفى في الوقت ذاته؛ فزاوية النظر عند الباقلَّاني أوسع، ومنظاره أعمق وأقدر؛ إذ هو قد تجاوز مجرد "الفصل والوصل والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب

(١) إعجاز القرآن للباقلاني صـ ٣٨، ٧٠ بتحقيق السيد أحمد صقر ط/٥ دار المعارف بمصر ١٩٩٧م.
(٢) إعجاز القرآن ٣٨.

عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع .... وعند الخروج من شئ إلى شئ، والتحول من باب إلى باب"[١].

جعل الباقلاّني تأليف المختلف من المعاني في القرآن أبعد شأوا من كل هذه الوجوه الحسنة في بيان ذوي البيان، فهو عنده يشملها ويشمل غيرها، وقد ضرب القاضي لذلك الأمثال، واستند لعجز أصحاب البيان عن معارضة القرآن، والإتيان بمثله – وقد تُحدوا به= لبيان أن هذه الوجوه – ومنها تأليف المختلف – إنما هي من دلائل الإعجاز. وللتأكيد أن " القرآن على اختلاف فنونه، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة – يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد"[٢].

يقول القاضي أبو بكر الباقلاّني بعدما عدد وجوها لإعجاز القرآن: "ولولا هذه التي بيناها، لم يتحير فيه أهل الفصاحة، ولكانوا يفزعون إلى التعمل للمقابلة، والتصنع للمعارضة ... فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك – علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة إنما عدلوا عن هذه الأمور، لعلمهم بعجزهم عنه، وقصور فصاحتهم دونه"[٣].

ثم يقول الباقلاّني بعدما أجمل كثيرا من وجوه الإعجاز:"وقد يمكن في تفاصيل ما أوردنا من المعاني الزيادة والإفراد، فإنا جمعنا بين أمور، وذكرنا المزية المتعلقة بها. وكل واحد من تلك الامور مما يمكن اعتماده في إظهار الاعجاز فيه "[٤]؛ ليدل بذلك على موضع الخبئ ليطلب، والدفين ليستخرج، كما يقول السادة من أهل العلم، فعبارته هذه يفهم منها أنه إنما قصد بما ذكر من وجوه الإعجاز أن ينصب العلم، ويرفع الراية، ليتهدّى من جاء بعده إلى ما دل عليه بذلك المنار المنصوب، والعَلَم الأبين.

(١) إعجاز القرآن ٧٠.
(٢) إعجاز القرآن ٧٠.
(٣) إعجاز القرآن ٧٠.
(٤) إعجاز القرآن ٧٠.

ومما يسهم في الكشف عن مقصود القاضي بمصطلح "تأليف المختلف" ما ذكره حول بعض المعاقد الحيوية في سورة غافر، حيث ركز كلامه على مواطن الصَّيْغُوغة بين القصص والمواعظ والأحكام والحجاج، وكشف عما بين هاته المختلفات من تآلف عبر عنه بـ " شريف النظم، وعليّ الضم"، وجلَّى عن مكامن هذا التأليف، ومخابئ ذلك التَّسبيك، وبيّن كيف جمع القرآن بين هذه المعاني المتشاردة، والمطارح المتباعدة بضمٍّ رهيف، ونظم طريف قد دُمج دمجا عجيبا، وأفرغ إفراغا واحدا معجزا.

يقول الباقلَّاني:"ولعلك تستدل بما قلنا على ما بعده، وتستضئ بنوره، وتهتدي بهداه. ونحن نذكر آيات أخر، لتزداد استبصارا، وتتيقن تيقنا: تأمل من الكلام المؤتلف قوله: "حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ، ذِي الَّطْوْلِ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ". أنت قد تدربت الآن بحفظ أسماء الله – تعالى – وصفاته، فانظر متى وجدت في كلام البشر وخطبهم مثل هذا النظم في هذا القدر، وما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعاني، وحسن الفاتحة والخاتمة. ثم اتل ما بعدها من الآي، واعرف وجه الخلوص من شئ إلى شئ: من احتجاج إلى وعيد، ومن إعذار إلى إنذار، ومن فنون من الأمر شتى، مختلفة تأتلف بشريف النظم، ومتباعدة تتقارب بعلي الضم"(١).

والباقلَّاني في هذا النص يقترب كثيرا من تحديد المصطلح خاصة من بداية قوله:" واعرف وجه الخلوص من شئ إلى شئ: من احتجاج إلى وعيد، ومن إعذار إلى إنذار، ومن فنون من الأمر شتى، مختلفة تأتلف بشريف النظم، ومتباعدة تتقارب بعلي الضم".

(١) إعجاز القرآن ١٩٧.

وفي ضوء عبارته يمكن تحديد أبعاد مصطلح " تأليف المختلف" بأنه: تأليف المعاني المختلفة على وجهٍ من التسبيك معجزٍ، ونمطٍ من الخلوص بديع.

وكلمة "معجز وبديع" في هذا التعريف المقترح لتأليف المختلف تحفظ مقصود الباقلاّني، ولا تفسد عليه إشارته؛ فالكلمتان " معجز وبديع" يبتعد بهما عن حدود التعريف ما اصطلح عليه القوم بـ "حسن التخلص" وإن كان هذا لا يمنع أن يكون من الأصول التي يمكن أن تكون قد تراءت أطيافها في فضاء القاضي، وهو يؤسس لهذا الوجه من وجوه الإعجاز، غير أن الفارق بين مصطلح: "حسن التخلص" و"تأليف المختلف" هو أن الأخير يكون الجمع فيه بين المعاني المتفرقة، والتأليف بين الأمور المتباعدة على وجه معجز خارج عن طوق البشر بمنأى عن طاقاتهم، بخلاف حسن التخلص الذي يتعاطاه كل من أوتي من البلاغة حظا، ورُزق من البيان نصيبا؛ ومن ثم أمكن القول بأن تأليف المختلف من البلاغة القرآنية الخاصة؛ إذ قد عده أبو بكر وجها من وجوه الإعجاز.

ولعل مما يشهد لذلك أن مصطلح حسن التخلص الذي اصطلح عليه القوم خلا من عبارة الباقلاّني :" عليّ الضم، وشريف النظم".

ليس ذلك حسب، بل إن ما يشبه مصطلح " تأليف المختلف" عند الباقلاّني مما ذكره العلماء كـ " الضم والجمع والنظم وحسن التخلص.... إلى آخر ما يمكن أن يتشابه من هذه المصطلحات مع تأليف المختلف = أكثر ذلك في كلام العلماء كان يتفيأ ظلال الشعراء في واحة الشعر الخصيب، والشعراء وأصحاب البيان أجادوا في كل ذلك، وبلغو الشأو، وحازوا المضمار، ولكن يبقى ما ذكره الباقلاّني من تأليف المختلف نجما بعيد المنال.

فَقَطْ يَقْبِسُ الأَفْذَاذُ مِن نُّورِهِ الَّذِي

يَرُدُّ حديدَ الطَّرْفِ مِنْ ضَوْئِهِ يَعْشُو! (١)

لأن الباقلاّني يتحدث عن تأليف المختلف كوجه من وجوه الإعجاز، فهو خاص بالقرآن، لا تقترب من قريبه طاقات البشر، فضلا عن أن ترتقي إليه؛ ومن ثم كان حديث القاضي متجها صوب سور القرآن وقصصه ومواعظه وأحكامه وحجاجه، وكيف أن كل ذلك يرد في السورة الواحدة، أو حتى في مجموع السور على هيئة من التآلف لا يهتدي لغورها حكيم، ويعشو عن سنابكها الخبير!. وهذا متحقق في طول القرآن وعرضه، وكله وبعضه، ... "ولست أقول هذا لك في آية دون آية، وسورة دون سورة، وفصل دون فصل، وقصة دون قصة، ومعنى دون معنى ... نظم القرآن لا يتفاوت في شئ، ولا يتباين في أمر، ولا يختل في حال، بل له المثل الأعلى، والفضل الأسنى. وفيما شرحناه لك كفاية، وفيما بيناه بلاغ"(٢).

لم يبق سوى التنبيه على ما ورد في كلام الباقلاّني من لفظتي " شريف النظم ، وعليّ الضم"، وأنهما يمتد رواقهما ليشمل كل وجه من وجوه الائتلاف والتآنس، ويتسامق امتدادهما ليحيط بما به يحدث الترابط بين المعاني والجمل، وهو ما يشير إلى الروابط النظمية بين الجمل، والعلاقات الرَّحِمِيَّة بين المعاني.

(١) هذا بيت من الطويل، وهو للباحث.
(٢) إعجاز القرآن ١٩٧.

المطلب الثاني

تأليف المختلف عند الشيخ دراز

سبق القول[١] بأن الإشارة التي أطلقها القاضي أبو بكر الباقلاّني حول تأليف المختلف في القرآن الكريم = قد هيأ الله لها رجلين من خيرة أهل العلم في الزمان الأخير، اسْتَهَمَّا بها، واحْتفزا لها، وكان أول هذين الرجلين فضيلة الشيخ الدكتور محمد عبدالله دراز – تولى الله مكافأته بالحسنى وزيادة – فقد أحسن توظيف كلام الباقلاّني عن تأليف المختلف.

وأَسْجَدَ عَيْنَيْهِ الصَّيُودَيْنِ عِنْدَهُ

وَسَلَّ سِهَامَ الْفِكْرِ مِنْ كُلِّ مَرْصَدِ[٢].

الملحظ الذي يُسَاجِرُ العين في كلام الشيخ دراز ما حباه الله من قدرة فائقة على الاستيعاب، وعلو الهمة، فإذا انقطع لأمر فكأنه رَائِدُ الوَسَائِدِ[٣]، أو هَسْهَاسُ اللَّيْلِ[٤].

لا تَستلِذُّ لَهُ الطَّوَارِفُ هَجْعَةً

حَتَّى يُحَقِّقَ مَا أَرَادَ وَأَمَّلَا[٥].

لقد وقف الشيخ دراز مليا عند مقالة الباقلاّني، وراح يستنسل منها أنساغا رطيبة مبهجة يفوح شذا عطرها يختلج الأرواح. والعجيب أنه – رحمه الله – عبر عن ذلك بلغة كثيفة مكتنزة، ومعان عميقة مركزة، بحيث "يبلغ بقليلِ

(١) ينظر: صـ ٥ من هذه الدراسة.

(٢) البيت من الطويل، وهو للباحث.

(٣) "يقال: رادَ يَرودُ إذا جاء وذَهَبَ، ولم يَطْمَئِنَّ، ورجل رائدُ الوِساد إذا لم يَطمِئنَّ عليه، لِهَمٍّ أقلقه". العين للخليل ٦٤/٨. بتحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي طبعة دار الهلال من دون تاريخ.

(٤) "يُقَال: رجلٌ هَسْهاسُ اللَّيْل، إذا لم ينم من عمل أَو سمر". جمهرة اللغة لابن دريد ١٢٩٨/٣. بتحقيق رمزي منير بعلبكي ط/١ دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٧م.

(٥) البيت للباحث، وهو من الكامل.

الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيرِه"[١]، وهذه ذروة التجربة البيانية عند اللسناء، ونابغي البيان[٢].

يقول الشيخ رحمه الله، وهو يفصل القول في تقليب كلام الباقلَّاني علي كل وجوهه الممكنة: "الحديث فيه – كما علمت – ذو شجون، ولكنه حين يجمع الأجناس المختلفة لا يدعها حتى يبرزها في صورة مؤتلفة، وحتى يجعل من اختلافها نفسه قواما لائتلافها، وهذا التأليف بين المختلفات ما زال هو " العقدة" التي يطلب حلها في كل فن وصنعة جميلة، وهو المقياس الدقيق الذي تقاس به مراتب البراعة، ودقة الذوق في تلك الفنون والصناعات، فإن تقويم النسق وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر الكثيرة أصعب مراسًا وأشد عناءً منه في أجزاء اللون الواحد والعنصر الواحد. وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها، فيخرج بذلك محاسنها ومساويها في أجلى مظاهرها، ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحكامها بسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير، أو التفريع، أو الاستشهاد، أو الاستنباط، أو التكميل أو الاحتراس إلى غير ذلك. وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي أو تجاور شيئين في الوضع المكاني دعامة لاقترانهما في النظم ... فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها= رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر: إما بحسن التخلص والتمهيد، وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع يتلاقى فيه المتباعدان، ويتصافح فيه المتناكران. وهذه كلها وجوه حسنة لو نظر إليها بين آحاد المعاني لأغنى بعضها عن بعض في إقامة النسق"[٣].

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١١١/١ طبعة دار الهلال بيروت ١٤٢٣هـ.
(٢) ينظر: دلالات التراكيب. د. محمد أبو موسى صـ ٢٩٠ ط/٢ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.
(٣) النبأ العظيم د محمد عبدالله دراز صـ ٢٠١ بتحقيق عبدالحميد الدخاخني ط/٢ دار طيبة بالسعودية ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

أول ما يرصد في كلام الشيخ أنه بدأ كلامه بسوق الدعوى مشفوعة بالدليل الذي هو مسلمة من مسلمات العقل حتى يتسنى لها دخوله؛ فَتَرِدَ العقل ورود المستملح، والدعوى تتمثل في قوله:" وهذا التأليف بين المختلفات ما زال هو "العقدة" التي يُطلب حلها في كل فن وصنعة جميلة، وهو المقياس الدقيق الذي تقاس به مراتب البراعة ودقة الذوق في تلك الفنون والصناعات".

الدعوى إذن أن التأليف بين المختلفات يمثل لغزا محيرا يتبارى في حله أصحاب المواهب، وعباقرة الفنون المختلفة، وهو كذلك المسبار الذي به تُراز قدرات أصحاب الفنون – ومنها البيان لا جرم –. هذه هي الدعوى، ودليله عليها مسلمة واقعية.

ومسلمته تتمثل في قوله:" فإن تقويم النسق، وتعديل المزاج بين الألوان والعناصر الكثيرة أصعب مراسًا، وأشد عناءً منه في أجزاء اللون الواحد والعنصر الواحد".

لا عقل يمتري في كون تأليف المختلف أصعب مراسا من تأليف المؤتلف، وهذا المركوز في الطباع – مما شفع الشيخ به دعواه = له أيّما تأثير في قبول الدعوى التي أطلقها الشيخ؛ فجعل فيها تأليف المختلفات مقياس قدر العقل، وميزان وعي الفهم، ومن ثم كان لغزا عويصا لا يقوى على فك رموزه "المُشَفَّرَة" إلا من قدر، وأما ما جاء منه في القرآن فكان خارجا عن الطوق، متخطيا حدود الأناسيّ.

بعدما ألقى الشيخ دعواه في أنف كلامه راح يعمل العقل في كلام الباقلّاني يتشوف خاطره لإدراك مراميه، فيتبع النظرة النظرة فيه، يرفع طرف قلبه البارع، وينظر بعين بصيرته، وجلية قلبه نظر العالم القادر على جمع خاطره، والإحاطة بمسارح أفكاره المترامية، ومطارح أنظاره المتنائية.

يُنَضِّدُ مَنْثُورَ الْكَلَامِ بِهِمَّةٍ وَقَفْزَةِ عَزْمٍ لَا يُرامُ غُبَارُهَا(١)

(١) البيت من الطويل، وهو للباحث.

بدأ الشيخ يُفَصِّلُ ما نَضَّدَهُ الباقلَّاني، معددا وجوه تأليف المختلف أو صوره فقال:"وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها، فيخرج بذلك محاسنها ومساويها في أجلى مظاهرها".

قوله:" وعلى هذه القاعدة" القاعدة المشار إليها هنا إنما هي قاعدة تأليف المختلف، وقوله بعدها:" ترى القرآن" فيه إشارة إلى خصوصية هذه القاعدة على هذا النحو المعجز بالقرآن، وقوله:" تارة" يوحي بالتعديد الجائي بعدها، فما من "تارة" إلا وتتبعها "تارة أخرة" هكذا هو كلام العرب.

ثم يبدأ الشيخ بذكر أول صورة من صور تأليف المختلف وتتمثل في الجمع بين المعاني المتقابلة أو المتضادة، ولا تنسى الدراسة ما قَرَّرَتْهُ قبلاً(١) من أن تأليف المختلف ليس هو عين التضاد، وإنما التضاد ربما يكون صورة من صوره، والفرق لائح بين المقصودين، فالعلاقة بينهما علاقة الجزء بالكل.

المهم أن منطوق كلام الشيخ يؤكد دخول التضاد في ساحة المصطلح، ولو بوجه من الوجوه؛ إذ يقرر أن القرآن يعمد أحيانا إلى الأضداد فيجمع بينها، وهذا ظاهر في دخول الجمع بين الأضداد عند الشيخ ضمن مصطلح تأليف المختلف.

ينتقل الشيخ إلى صورة أخرى من صور تأليف المختلف فيقول:" ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحكامها بسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير، أو التفريع، أو الاستشهاد، أو الاستنباط، أو التكميل أو الاحتراس إلى غير ذلك".

الذي يفهم من مستهل كلام الشيخ هنا أن تأليف المختلف هذه المرة لا يكون بين الأضداد، وأن هذه المختلفات في أنفسها يؤلف بينها النظم العالي بسوق بعضها إلى بعض مساقات مختلفة شرع الشيخ بعد ذلك في تبيين هاته المساقات.

(١) ينظر: صـ ١١ من هذه الدراسة.

وقوله:" وسوق بعضها إلى بعض" يدل على موقع المعنى المتأخر من سابقه؛ فالمعنى الأول مسوق إليه، والمعنى التالي مسوق، ومن ثم يمكن القول – في ضوء هذا الفهم – أن من صور تأليف المختلف عند الشيخ أن يقع المعنى المتأخر من المتقدم – من غير شرط أن يكون أولا وثانيا؛ فقد تتوالى المعاني ويقع التآلف بين أول منها وثانٍ أو بين ثالث منها وأول= موقعَ "التنظير، أو التفريع، أو الاستشهاد، أو الاستنباط، أو التكميل أو الاحتراس إلى غير ذلك".

هذه المساقات الستة التي عددها الشيخ يمكن في إطارها تحديد علاقة المعني التالي بما يتلوه، بحيث يكون من صور تأليف المختلف أن يساق المعنى اللاحق إلى السابق مساق واحدٍ من هذه المساقات الستة:

فأما المساق الأول وهو التنظير(١) فلم أهتد إلى مراد الشيخ به، فهل يمكن أن يكون قصدُ الشيخ بالتنظير مراعاةَ النظير؟.

وأما التفريع فَمَرَدُّه اللغوي إلى الانحدار أو التصعيد فهو من الأضداد(٢). يقال:" فرَّعَ من هَذَا الأَصلِ مسائلَ، أَي جعلَها فروعَهُ، فتَفَرَّعَتْ"(٣). وهكذا يكون من وجوه تأليف المختلف عند الشيخ أن يساق المعنى اللاحق إلى

(١) التنظير: اسم خماسي مأخوذ من النظر، وهو" تقليب البَصِيرة لإدراك الشيءِ ورؤيته، وقد يُراد به التأَمّل والفَحْص، وقد يُراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْص... واستعمالُ النَّظَر فى البَصِر أكثر استعمالاً عند العامّة، وفى البَصِيرة أكثر عند الخاصّة". بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٨٢/٥ بتحقيق محمد علي النجار طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامة بالقاهرة ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م. وقال عنه ابن أبي الأصبع المصري:" هو أن ينظر الإنسان بين كلامين إما متفقي المعاني أو مختلفي المعاني، ليظهر الأفضل منهما". بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري صـ ٢٣٨ بتحقيق حفني محمد شرف عن دار نهضة مصر من دون تاريخ، وينظر: معجم النقد العربي القديم لأحمد مطلوب٣٩٦/١، ط/١ دار الشئون الثقافية ببغداد ١٩٨٩م.

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور ٢٤٨/٨. ط/٣ دار صادر بيروت ١٤١٤هـ.

(٣) تاج العروس ٤٨٩/٢١ طبعة دار الهداية بتحقيق مجموعة من المحققين من دون تاريخ.

سابقه مساق الفرع إلى أصله؛ فيكون بذلك مستولدا منه، كما تنبثق النبتة من الحبة(١).

المساق الثالث: الاستشهاد، وفيه يحن المعنى المتأخر إلى المعنى المتقدم حنين الدعوى إلى الدليل، وينعطف الكلام على الكلام انعطاف البرهان والبينة لتكون النفوس له مذعنة، وإنما مكمن الإذعان في دخوله على النفس عن تطلع واستشراف.

المساق الرابع: الاستنباط، وأصله خروج الماء من العين من قولهم: نَبَطَ الماءُ: إذا خرج من منبعه(٢)، و"الاستنباط: الاستخراج، وأنبط الحفّار: إذا بلغ الماءَ"(٣)، ومن ثم يمكن القول بأن تأليف المختلف بطريق الاستنباط يكون بسوق المعاني اللاحقة صوب المعاني السابقة مساق الاستنباط، فيقع المعنى التالي من سابقه موقع المطلوب من الطالب، ويساق إليه مساق الماء إلى الحفار الذي يستحصله من باطن الأرض، وقعر البئر؛ فيكون الفرح به أظهر، والحرص عليه أشد.

ولا يخفى كون الاستنباط أعمق فهما في الدلالة على التأليف بين المعاني المختلفة مما سبقه من مساقات عددها الشيخ دراز من: التنظير، والتفريع، والاستشهاد؛ ومن ثم كان استنباط المعاني من الكلام لا يتأتى إلا بقوة العقل، ونفاذ البصيرة. بله سوقها هذا المساق!.

المساق الخامس التكميل، ومعناه في اللغة التتميم، وإن فرق بعض أهل العلم بينهما؛ فجعلوا التكميل أعلى وأدق من التتميم؛ "فالتتميم يرد على المعنى

(١) "التفريع: جعل شيء عقيب شيء؛ لاحتياج اللاحق إلى السابق" التعريفات للشريف الجرجاني ٦٣/١ بتحقيق جماعة من المحققين ط/١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م. "ثمَّ التَّفْرِيع قد يكون تَفْرِيع السَّبَب على الْمُسَبَّب، وتفريع اللَّازِم على الْمَلْزُوم أَيْضا". الكليات لأبي البقاء الكفوي صـ ٦٧٦ ، ٨٦٢ بتحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري دار الرسالة بيروت من دون تاريخ.

(٢) ينظر: العين للخليل ٤٣٩/٧.

(٣) تاج اللغة للجوهري ١١٦٢/٣ بتحقيق أحمد عبدالغفور عطار ط/٤ دار العلم للملايين بيروت ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

الناقص فيتمه، والتكميل يرد على المعنى التام فيكمله؛ إذ الكمال أمر زائد على التمام"(١).

وعليه فإن من طرائق تأليف المختلف ومساقاته التي استحصاها الشيخ أن يساق المعنى الثاني مثلا إلى الأول مساق العافية إلى الصحيح، ووفرة الجودة إلى المجوَّد؛ فيزداد المعنى الأول إلى حسنه حسنا، وصحةً على صحته، وجودة فوق ما فيه، وكأن المعنى الثاني تأكيد للأول، أو تتميم لما عساه أن يكون قد اكتنفه من أَقْضِيَة.

المساق السادس الاحتراس، وأصله أن يُسْرَقَ الشيء من المرعى، "يُقَال للَّذي يَسْرِقُ الْغنم مُحْتَرِسٌ، وَيُقَال للشَّاةِ الَّتِي تُسْرَقُ حَرِيسَة"(٢)، ولا جرم أن من يقدم على هذا يحترس لنفسه، ويحتاط أن يراه أحد، وعليه فإن من صور تأليف المختلف عند الشيخ أن يساق المعنى التالي إلى الأول مساق الاحتراس بأن يَدفع المعنى الثاني ظنا يُتوقع فهمه من الأول.

بذلك يكون الشيخ دراز قد عدد وجوها ستة لتأليف المختلف سماها مساقات، إضافة إلى وجه آخر ذكره قبل هاته المساقات هو التقابل؛ فيصل بذلك عدد الوجوه سبعة أوجه، ينتقل بعدها الشيخ إلى صور أخرى من صور تأليف المختلف فيقول:" وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي أو تجاور شيئين في الوضع المكاني دعامة لاقترانهما في النظم ... فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها= رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر: إما بحسن التخلص والتمهيد، وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع يتلاقى فيه المتباعدان، ويتصافح فيه المتناكران.

(١) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري صـ ٣٦٢ بتحقيق حفني محمد شرف طبعة الجمهورية العربية المتحدة من دون تاريخ.

(٢) تهذيب اللغة للأزهري ١٧٣/٤ بتحقيق محمد عوض ط/١ دار إحياء التراث العربي بيروت ٢٠٠١م.

وهذه كلها وجوه حسنة لو نظر إليها بين آحاد المعاني لأغنى بعضها عن بعض في إقامة النسق"[١].

في هذه المقطوعة الثرية من كلام الشيخ أربعة صور لتأليف المختلف:

الصورة الأولى: أن يقع المعنى الثاني من الأول وقوع الصنو من صنوه، والشقيق من شقيقه، وذلك بأن يلمح النظم العالي لما بين المعنيين من تآخٍ من جهة اشتراكهما في الوقوع التاريخي، فيجعل اتحاد زمن الوقوع رابطة بين المعنيين تستوجب التجاور والتآنس.

الصورة الثانية: يراعي فيها النظم العالي الرابطة المكانية؛ فيجعل التجاور المكاني رحما بين الشيئين يبلها ببلالها، فيساق المعنى التالي إلى السابق مساق الجار إلى جاره، والقريب من قريبه، فتلتمع هذه الوشيجة؛ لتكون سببا في تآلف المعاني، وباعثا على تآخيها.

الصورة الثالثة: استبصرها الشيخ من استقراء النصوص، والعكوف في مرابعها مليا، يقلب العين والقلب واللسان؛ حيث لما استوفى الشيخ الأوجه العشرة التي يمكن أن تكون مدخلا لتأليف المختلف من المعاني راح يعرج على وجه غاية في الدقة ينبثق عنه فرعان رطيبان يتمثلان في الآتي:

الفرع الأول: حسن الخلوص من معنى إلى معنى، وذلك بإتقان التمهيد والتوطئة للمعنى التالي؛ بحيث يبلغ من حسن التمهيد أن تستدعي النفس المعنى التالي، فلا تشعر بالانتقال الطفريّ بين المعاني، وإنما يدخل المعنى عليها دخول المأنوس، بل المحبب المنتظر المرجو قدومه.

الفرع الآخر: إمالة الصيغ التركيبية على وجه يتلاقى فيه المتباعدان، ويتصافح فيه المتناكران، كما يقول الشيخ، و صيغة الكلمة: "صورتها أو هيئتها الحاصلة من ترتيب حروفها وحركاتها"، ومعنى إمالة الصيغ التركيبية أن يعمد البيان المعجز إلى لفظة فيعدل بها عن أصلها التركيبي لنكتة معينة،

(١) النبأ العظيم صـ ٢٠١ ، ٢٠٢.

بها تتآلف المختلفات، وتتجاذب المتباعدات، ولكن هل الشيخ يقصد بمصطلح إمالة الصيغ التركيبية هذا العدول التركيبي الذي يتحقق عن طريق الإلحاق أو القلب المكاني، أو الإعلال والإبدال؟! الله أعلم.

بهذا يكون الشيخ قد فرغ من تعديد وجوه التأليف بين المعاني المختلفة وقد أوصلها إلى أحد عشر وجها من وجوه تأليف المختلف، بذل فيها وسعه، واستفرغ طاقته، وسعى نحو تقريبها سعيه.

وَأَطْلَعَهَا فِي مَوْكِبِ الْحُسْنِ غَادَةً

تُنَادِي عَلَى خُطَّابِهَا الْشُّمِّ بِالْمَهْرِ(١).

وهذا المهاد النظري لا يحتمل الوقوف أكثر من هذا مع كلام الشيخ دراز، وهو على وجازته كلام مدمج متزاحم المعاني، بعيد المرامي في عميق المشارع؛ فما أحوجه – على هذا –

إِلَى خَاطِبٍ لِلْحُسْنِ لَمْ يَغْلُهُ الْمَهْرُ

تَقَاصَرُ عَنْ آمَالِهِ الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ(٢).

يفصص منضود الكلام بخاطرٍ، سريع كلمع البرق أو هو أسرع، يجلّي إشارات الإمام بحكمة، وينزلها من عقله كل منزل، ويلبسها من رائق الفكر حلة، كروض كثيف المزن بل هي أطيبُ، وما يدريني؟

لَعَلَّ فِي قَادِمِ الْأَيَّامِ مُتَّسَعا

لِذَلِكَ الْأَمْرِ يُستَجلَى بِهِ النَّظَرُ! (٣).

(١) البيت من الطويل، وهو للباحث.
(٢) البيت من الطويل، وهو للباحث.
(٣) البيت من البسيط، وهو للباحث.

المبحث الثالث

تأليف المختلف عند الشيخ أبي موسى

أما الشيخ أبو موسى فقد نظر في كلام الباقلَّاني نظر العلماء البُصراء بنقد الكلام، الحُفَوَاء بتأمله، الذين يفترعون أبكار المعاني.

يَتَطَالَلُونَ لِيَسْبُرُوا أَغْوَارَهَا

وَيُجَاهِدُونَ لِيَقْبِسُوا أَنْوَارَهَا(١).

ودَأَبَ عليه دَأْبَ الصَّوَّاغ الماهر ليُهيئه على مثال مستقيم، بعزمةِ صدقٍ دونها يَفْرَقُ الدهرُ، وطاف حوله طواف النحلة حول أجناس الرحيق، فوق منثور الزهور، ونماها لتحور، طاقةً من سحر بابل، يخطف العين سناه.

عكف الشيخ على كلام الباقلَّاني، وهي عادته مع نصوص العلماء؛ يغاديها ويراوحها، ينخل طحينها، ويسل القذى عن عجينها.

زَفَّتْ لَهُ الأيامُ أَبْكَارَ الْفِكَرْ

فَاسْتَفْرَعَ الْأَنْسَاغَ أَغْصَانا بَلِيلَةْ(٢).

وراح يستحلب منها أرسال البيان والمعرفة، ليقدمها لأجيال هذه اللغة الشريفة من بعده.

كَأَطْعَمِ مَطْعُومٍ وَأَشْهَى مُدَامَةٍ

تُقَبِّلُها بَعْدَ الْقُلُوبِ النَّواظِرُ

فَلِلَّهِ دَرُّ الشَّيْخِ أَنَّى تَجَمَّعَتْ

لَهُ فِي سَبِيلِ الْعِلْمِ تِلْكَ الْخَوَاطِرُ؟!(٣).

بمراجعة كلام الشيخ أبي موسى حول تأليف المختلف عند الباقلَّاني يمكن الخروج بطاقة من الملاحظات:

(١) البيت من الكامل، وهو للباحث.
(٢) البيت من الكامل، وهو للباحث.
(٣) البيتان من الطويل، وهما للباحث.

أولا: من مقررات الشيخ، وهو يعالج كلام القاضي أبي بكر أن الباقلَّاني صاحب الجهود السخية فيما يتعلق بمسائل الفصل والوصل، وذلك مما استثمره المتأخرون عن القاضي، وهم يحررون مسائل هذا الباب، وإن كان الشيخ أبو موسى لم يقف عند ذلك طويلا؛ كأنه يخشى أن يبتعد عن القصد، أو يتبادر إلى الفهم أن تأليف المختلف هو الوجه الآخر للفصل والوصل، لا بل إنه يصرح بمحاولته الابتعاد عن المصطلحات؛ إذ لم تكن قد تقررت في زمن الباقلَّاني، وأنه مصروفُ الهمِّ إلى تلمس "علاقات المعاني، ومتى يُقضَى فيها بالتنائي والتطارح؟ ومتى يُقضى فيها بالتقارب والتآلف"(١).

ثانيا: يقترب الشيخ من غرضه الملح في تحديد بيان طريقة النظم في تأليف المختلف، كيف يتم ذلك؟، ويمسك بواحدة من أخص خصوصيات تأليف المختلف تتمثل في توطئة آخر الكلام السابق لأول الكلام اللاحق، بحيث يُستولد رأس المعنى الثاني من رحم المعنى الأول، فتتحدر المعاني في سلاسة وجمال تحدر حبات الندي على صفحات الزهور النضرة(٢).

ثالثا: يعرج الشيخ على خصوصية أخرى في تأليف المختلف يشفع بها ما سبق من خصوصية التوطئة، تلك هي خصوصية الطباق أو التقابل بين المعاني، ولكن القارئ يستشعر رغبة من الشيخ في طيّ صفحة الكلام الذي يُقَرِّب الذهن من المصطلحات المصكوكة بعد الباقلَّاني، وكأنه يريد أن يبقى

(١) يقول الشيخ أبو موسى في ذلك:" ويلاحظ أن ما قرره البلاغيون المتأخرون من ضروب الجامع لم يكن قائما عند الباقلَّاني، وأنه يمكن أن نعد جهوده فيما عالج من فصل الكلام ووصله من مصادر البلاغيين". الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم د. محمد أبو موسى صـ ٢١١-٢١٤ ط/٢ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

(٢) يقول الشيخ أبو موسى في ذلك:" وقد تجد هذه الخصوصية في تلك الصلة في قوله تعالى: (له ما في السماوات وما في الأرض) ...فذكر من صفات الحق الذي تدعو الشريعة إلى صراطه ملكيته لما في السماوات وما في الأرض، ولم يقل مثلا في هذا السياق (صراط الله العزيز الرحيم)، وذلك لأن ذكر ملكيته السماوات والأرض يقرب طرف الكلام الأول إلى الكلام الثاني، فالذي يملك الكل لا يؤول الأمر إلا إليه، وهكذا تجد آخر الكلام الأول كأنه يهئ ويوطئ إلى الكلام الثاني؛ فيحدث بذلك التلاقي والتآلف، وهذا من محكم الكلام وفقهه من محكم الفقه". الإعجاز البلاغي صـ ٢١١، ٢١٢.

مصطلح "تأليف المختلف" مصطلحا خاصا، ونظيفا، وبكرا لم تكدره الدلاء[١].

رابعا: وقف الشيخ عند بلاغة الخلوص من غرض إلى غرض، وعدها من خصوصيات تأليف المختلف؛ لتنضاف بذلك إلى ما سبقها من خصوصيات رصدها الشيخ، ووقف عندها، ونبه أنها تظهر في تناول السورة كاملة، ولفت إلى ما تناوله الباقلاّني من سورة النمل وسورة غافر، وأنه وقف عند مواطن هذا التخلص، وأشار إليها دون أن يدخل في تحليلها، وحاول الشيخ أبو موسى تقريب كلام الباقلاّني في ذلك[٢].

خامسا: وقف الشيخ مع أسلوب الشرط معتبرا إياه لحمة قوية تعقد بين طرفي الكلام، وواحدة من آليات تسبيك المعاني، والتأليف بين مختلفاتها، وذلك في تعريجه على تقريب كلام الباقلاّني حول تأليف المعاني المختلفة في سورة النمل: [٣].

سادسا: قبل أن يحزم الشيخ أمتعته لمغادرة ذلك الروض الأُنُف ينبه على دقة إحساس الباقلاّني بالمقاطع القرآنية التي عندها ينتقل الكلام من معنى إلى معنى على وجه عجيب معجز، ويهب الباقلاّني براءة اختراع لهذا المصطلح العجيب"تأليف المختلف" على هذا الوجه غير المسبوق[٤].

---

(١) يقول الشيخ: "ومن الكلمات النائية المطارح، المتباعدة المواقع التي ألفها النظم البديع، وصارت به متجانسة متآنسة قوله تعالى:" وربك يخلق ما يشاء ويختار، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون". أما التباعد فهو أن الأولى إخبار عن الحق بأنه يخلق ما يشاء ويختار، والثانية إخبار عن المعبود بالباطل بأنه لا يخلق ولا يختار، = والثالثة تسبيح وتحميد، وهذا يعني أنها معانٍ ثلاث متغايرة، متنائية. أما طريقة تأليفها ببديع النظم فقد يكون في ذلك التطابق الذي تراه في إثبات الخيرة في الجملة الأولى، ونفيها في الجملة الثانية، وبهذا يتقارب الكلامان نوعا من التقارب، ولا أريد هنا الإشارة إلى الطباق، وإن كان من بديع الكلام". الإعجاز البلاغي صـ ٢١٣ ، ٢١٤.

(٢) ينظر: الإعجاز البلاغي صـ ٢١٤، ٢١٥.

(٣) يقول الشيخ في ذلك:"وتأمل اللحمة الساطعة التي دمجت المعنيين أبلغ ما يكون الدمج، وسبكتهما أدق ما يكون السبك، مع ما بينهما من تباعد، وأعني بالكلامين قوله عليه السلام لأهله:" إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون"، والثاني هو النداء وما يتبعه من آيات باهرات :" يا موسى إني أنا الله"، وهذه اللحمة ماثلة في هذا الشرط الذي عقد طرفي الكلام؛ فآخر المعنى الأول هو مجئ موسى إلى النار "فلما جاءها"، وأول المعنى الثاني هو هذا النداء الأعظم " نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين" ... أرأيت!!؟. الإعجاز البلاغي صـ ٢١٦.

(٤) ينظر: الإعجاز البلاغي صـ ٢١٦.

سابعا: يسلك الشيخ طريق العلماء المخبتين؛ فينسب إلى نفسه القصور، وهو ابن زَوْمَلَتِهَا.

وَيَا بُعْدَ مَا بَيْنَ الْقُصُورِ وَبَيْنَهُ

وَلَكِنَّهَا نَفْسُ الْكَرِيمِ تَوَاضَعُ!(١).

ويعلن عن يقينه بسعة هذا اللاحب "تأليف المختلف" ودقته وأهميته، ويشفع ذلك برجاء صادق أن يهب الله هذا الباب

فُؤَادَا زَكِيّا يَسْتَبِينُ طَرِيقَهُ

وَيَحْلِبُ مِنْ أَرْسَالِهِ طَيِّبَ الشُّهْدِ(٢).

ثامنا: يمخض الشيخ زبدة ما وقف عليه من كلام الباقلاّني؛ ليقرر في النهاية أن حسن التخلص هو جوهر ما دار عليه كلام الباقلاّني في هذا الشأن، وأن هاته النظرات الثاقبة، والمبكرة جدا صوب علاقات المعاني الجزئية، وعلاقات الأغراض كانت المادة الخام التي استصنع منها الخالفون مصطلحات علمية منتظمة، وذلك فيما عرف بعدُ بـ (باب الفصل والوصل، وباب واو الاستئناف وفائه، وعطف القصة على القصة، وغير ذلك من وسائل ربط الجمل ، ووسائل ربط الأغراض أيضا). كما نبه على ما أفاده علم المناسبة ذلك العلم الشريف من نظرات الباقلاّني(٣).

هكذا وقف الشيخ الأجل الذي أخلق بردة الصّبا؛ فاستحكم وقاره؛ فسرى بمصباحه في طريق الرشاد، وأنفق من عمره بغير حساب= وقف من كلام الباقلاّني وقفة الخبير المُنَجَّد الذي جمع قوة الشباب إلى وقار المشيب، ونظر فيه نظرة الصقر الصَّيُود يرقب الصيد لقنصه، وتحلى بصفات العلماء، وتسامى عن تَعِلَّات الحظوظ، فتولته تباشير النجاح، ومع الإخلاص تحقيق المرام.

(١) البيت من الطويل، وهو للباحث.
(٢) البيت من الطويل، وهو للباحث، وينظر: الإعجاز البلاغي صـ ٢١٨.
(٣) ينظر: الإعجاز البلاغي صـ ٢١٨.

الشق التطبيقي للدراسة
وفيه ثلاثة مباحث
مسبوقة بـ آيات السورة الكريمة وتمهيد حول معاقدها الكلية.

المبحث الأول: تأليف المختلف في آيات المعقد الأول، وفيه مطلبان:
المطلب الأول: الآيات من الأولى حتى الخامسة.
المطلب الآخر: الآيات من السادسة حتى التاسعة.

المبحث الثاني: تأليف المختلف في آيات المعقد الثاني.
المطلب الأول: بين المعقدين الأول والثاني، وبيان معاني المعقد الثاني.
المطلب الثاني: الآيات من العاشرة حتى التاسعة عشرة.

المبحث الثالث: تأليف المختلف من معاني المعقد الثالث، وفيه مطلبان.
المطلب الأول: بين المعقدين الثاني والثالث.
المطلب الآخر: بين آيات المعقد الثالث.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ

عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

تمهيد حول المعاقد الكلية للسورة.

تحاول الدراسة التحفِّي بالخط المنهاجي للباقلاني في تأليف المختلف، مستضيئةً بتقريب الشيخ أبي موسى(١)، مستثمرةً ما أفاض به قلم الدكتور دراز من لفتات بارعة حول مواطأة المعاني المختلفة، وطرائق تجانسها، وعليه فإن شأن الدراسة مع سورة المزمل أن تبدأ أولا بتحديد المعاقد الكبرى للسورة، ثم بيان المعاني معنى بعد معنى، فتتناول كل جملة، وكل آية تناولا يَظهَر به كُنْهُ معناها، بحيث تتميز بطبعها، وبمدلولها، فإذا فرغت الدراسة من ذلك توفرت على بيان ما يكون بين هذه المعاني من تآلف أو تخالف، مركزةً بالطبع على المعاني المختلفة أكثر – إذ هو محورها، وقطب رحاها –، منتهيةً إلى ما هو الأهم في البحث، وهو بيان طرائق النظم العالي في تأليف المختلف.

وتُذَكِّرُ الدراسة هنا بكلام الشيخ أبي موسى، وكيف فهم تأليف المختلف من كلام الباقلاّني حيث يقول: :" ليس مراده [الباقلاّني] بالمعاني المختلفة الأغراض كالانتقال من الوعد إلى الوعيد .... وإنما المراد ما هو أشمل من

(١) إنما قدم الباحث الشيخ أبا موسى هنا؛ لأنه من ضرب الأمثال، وطبق منهاج الباقلاّني على بعض الآيات فيما يتعلق بتأليف المختلف. أما الدكتور دراز فهو العُقاب المحلق في سماوات عالية المكتفي فقط بنظرات العيون، ونكز الخواطر، فقد لملم تأليف المختلف في قليل من الألفاظ.

ذلك، مما يدخل فيه العلاقات الكائنة بين المعاني الجزئية الماثلة في الجملة والجملتين، أو الماثلة بين أجزاء الجملة، وكذلك العلاقات بين الأغراض الماثلة في الفقر..."[١].

سورة المزمل عشرون آية، وهي مكية غير الآية الأخيرة منها[٢]، ويمكن تحديد المعاقد الكلية للسورة في الآتي:

المعقد الأول:

تمثله الآيات التسع الأولى، ومحورها ملاطفة الحق سبحانه نبيه ﷺ، وإرشاده لخير الزاد: قيام الليل المعين على تحمل ثقل الوحي، وأعباء الدعوة= وذكر الله، وحسن التوكل عليه، والتبتل إليه.

المعقد الثاني:

تمتد به الآيات من العاشرة حتى التاسعة عشرة، وعموده الأمر بالصبر على المكذبين، وهجرهم، والتكفل بالنصر عليهم، وتوعدهم بالعذاب، وتخويفهم بما حل بفرعون وقومه لما كذبوا سيدنا موسى عليه السلام، وتذكيرهم ببعض أهوال القيامة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكورا.

المعقد الثالث:

يكمن في الآية الأخيرة، وقطبه الثناء على النبي ﷺ، وطائفة من الموحدين حملوا أنفسهم على قيام الليل، والترخص في قيام الليل، والوعد بالجزاء العظيم على أعمال الخير.

على أنه لا يشترط أن يقوم كل واحد من هذه المعاقد بمعنى وحيد؛ فقد تتناسج المعاني داخل المعقد الواحد، ويكون بعضها مؤتلفا، وبعضها مختلفا، ولكنها في مجموعها تسوق نحو غرض واحد رئيس يقارب بين أبعادها، ويجمع بين أفرادها.

---

(١) الإعجاز البلاغي صـ ٢٠٩.

(٢) ينظر: تفسير الرازي مفاتيح الغيب=التفسير الكبير ٣٠/٦٨١ ط/٣ دار إحياء التراث العربي ١٤٢٠هـ. ونظم الدرر للبقاعي ٣/٢١ طبعة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة من دون تاريخ.، والكشاف٤/٦٣٤ ط/٣ دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧هـ.

المبحث الأول

تأليف المختلف في آيات المعقد الأول للسورة الكريمة

المطلب الأول:

الآيات من الأولى حتى الخامسة.

من تأليف المختلف في السورة الكريمة قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلاً ثَقِيلاً ۝٥

بتدقيق النظر في المقاطع التي عندها ينتقل الكلام من معنى إلى معنى آخر يُلحظ أن هذه الآيات تمثل ثلاثة معانٍ مختلفة عقد بين آطرافها شريف النظم، وسبَّك أعطافَها عليُّ الضمّ:

المعنى الأول: تمثله الآية الأولى:(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ)، وفيها ملاطفة الله تعالى لرسوله ﷺ عن طريق هذا النداء بالوصف، والحالةِ التي كان عليها ﷺ، وكأن المعنى: لا بأس عليك أيها الرسول الكريم المتزمل فَرَقًا مما رأيت، ولا شرَّ يصيبك، وقد كان ﷺ خشي أن يكون ما به من لمة الملك إنما هو من مس الجن، أو من مكائد الشيطان(١)–؛ فجاء النداء بهذا الوصف كأنه تربيت على كتف رسول الله ﷺ، ومسح على رأسه، وتأنيس له، وإذهاب للوحشة عن قلبه الطاهر ﷺ. "على أن فيه مع ذلك إشارة إلى البشارة بالقوة على حمل أعباء ما يراد به، من قولهم: زمل الشيء: إذا رفعه وحمله"(٢). هذا هو المعنى الأول المتبدي من جملة النداء.

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوَّلُ مَا جَاءَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَافَهُ وَظَنَّ أَنَّ بِهِ مَسًّا مِنَ الْجِنِّ، فَرَجَعَ مِنَ الْجَبَلِ مُرْتَعِدًا وَقَالَ: زَمِّلُونِي، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ جِبْرِيلُ وَنَادَاهُ وَقَالَ: يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. تفسير الرازي مفاتيح الغيب=التفسير الكبير ٦٨١/٣٠ ط/٣ دار إحياء التراث العربي ١٤٢٠هـ.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٣/٢١ طبعة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة من دون تاريخ.

المعنى الثاني: تدل عليه الآيات:" قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤.

ويطوف حول أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بالاشتغال بالعبودية بقيام اليل، وترتيل القرآن، وترك نصيب النفس[١]، والأمر في قوله ﷻ:(قم) صريح لا يحتمل غير الطلب، والوجوب والإلزام[٢]، ولا شك أن هذا الإلزام معنى مغاير لمعنى الملاطفة والبشارة الذي حملته جملة النداء قبل قليل؛ ولا يكون هذا التباين لو أن النظم قال مثلا: " يا أيها المزمل، دع الهمّ وانعم هنيئا"؛ إذ يكون ساعتها بين المعنيين مؤانسة؛ فيكون الكلام من قبيل تأليف المؤتلف. بخلاف قوله ﷻ:" قم اليل إلا قليلا" المتضمن معنى : "صلِّ اليل إلا شيئا يسيرا تنام فيه"[٣]، وهو الثلث الأخير[٤].

المعنى الثالث: تبصره العين على أعتاب الآية الخامسة:" إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥. وتخبر عن أمر الوحي، وأعباء الرسالة، وثقل التكاليف المنوطة برسول الله ﷺ، أي سنلقي عليك " كلاما راجحا مخالفا لشهوات النفس[٥]"، وهو – لاشك – معنى غير المعنيين السابقين، والانتقال بين هذه المعاني الثلاثة المتغايرة فيه – كما يعبر الباقلّاني رحمه الله– تبتير للنظم، وإعياء للكلام، وهو في ظاهر النظم انتقال طفري مفاجئ، وهو ما

(١) كأنه قيل: "اتْرُكْ نَصِيبَ النَّفْسِ وَاشْتَغِلْ بِالْعُبُودِيَّةِ". تفسير الرازي ٦٨١/٣٠.
(٢) كان الرجل "يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ مَخَافَةَ أَنْ لَا يَحْفَظَ الْقَدْرَ الْوَاجِبَ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ حَتَّى وَرِمَتْ أَقْدَامُهُمْ وَسُوقُهُمْ". تفسير الرازي ٦٨٢/٣٠.
(٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٢١٤/١ بتحقيق إبراهيم شمس الدين طبعة دار الكتب العلميو بيروت من دون تاريخ.
(٤) ينظر: تفسير الماوردي = النكت والعيون ١٢٤/٦ بتحقيق السيد بن عبدالمقصود طبعة دار الكتب العلمية بيروت من دون تاريخ.
(٥) دَرْجُ الدُّرَر في تفسير الآي والسور للإمام عبدالقاهر الجرجاني ٦٧٠/٢ بتحقيق محمد أديب شكور ط/١ دار الفكر عمّان الأردن ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

يستفز النفس، ويستخف العقل؛ لاستبطان النظم؛ وقوفا على طرائقه في التأليف بين هذه المطارح المتنائية، والمسارح المتباينة.

ويمكن القول بأن اللحمة بين المعنى الثاني= الدائر حول الوجوب والإلزام بقيام الليل، وما في ذلك من مشقة على النفس، وما يقتضيه من تشمير عن ساعد الجد وساقيْه،= والمعنى الأول المتلفع بمروط الملاطفة والمؤانسة للرسول الكريم ﷺ= هذه اللحمة تجليها الخيوط الدقيقة التي نسجتها لفظة المزمل من التأنيس والتقريب والتحبب لرسول الله ﷺ، وإشعاره بأنه محفوف بالقرب، مشمول بالرضا ؛ وكل هذا يشحذ همته ﷺ، ويهيئه لما يلقى عليه بعدُ مما قد يكون فيه مشقة على النفس من إلزام بقيام الليل، والتبتل إلى الله بقراءة القرآن؛ إذ لا شك أن السيد إذا= ندب عبده لأمر جلل، وقدم بين يدي هذا التكليف بما يبعث على قبوله من تحفيز وتشجيع، وإيحاء للمأمور أنه حريّ بالنهوض بالأمر، جدير بالامتثال، وأنه مُعانٌ من سيده، ومرضيٌّ عنه = لا شك أن ذلك يجدد الطاقة، ويبعث النشاط، ويستثير كوامن الهمم، وبهذا تكون نهاية المعنى الأول قد فتحت الباب للمعنى الثاني؛ ليطل برأسه إطلالة القريب المأنوس، ويدخل إلى النفس دخول المرجو المنتظر.

أما المعنى الثالث فسابح في فلك ذلك العبء الملقى على كاهل النبي ﷺ من الوحي الذي بلغ من ثقله أن النبي ﷺ كان يتصبب عرقا كلما تنزل عليه الوحي(١)، وكانت تتحدر حبات جمانه على صفحة جبينه الطاهر من شدة ما يلقى من ثقل الوحي، حتى لقد بلغ من شدة الأمر على النبي ﷺ أنه كان" إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ كُرِبَ لِذَلِكَ وَتَرَبَّدَ وَجْهُهُ"(٢). بل إنه ﷺ " كَانَ إِذَا

(١) راجع صحيح البخاري ٦/١ باب كيف كان بدء الوحي بتحقيق محمد زهير بن ناصر ط/١ دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ. وفيه تقول عائشة رضي الله عنها: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا".

(٢) صحيح مسلم ١٨١٦/٤ بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت من دون تاريخ.

أُوحِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ وَضَعَتْ جِرَانَهَا، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَتَحَرَّكْ [١]، وكأنها لا تقوى على التحمل، وهذا القول الثقيل والعبء الكبير كان يحتاج في ظاهر الأمر إلى حصول النبي ﷺ على الراحة اللازمة للنهوض بهذه المهمة، وليس إلى الأمر بأن يقطع ﷺ الليل قائما على قدميه حتى تتورم[٢]، مما يظهر التباين – في الظاهر – بين المعنيين الثاني والثالث.

أما وجه الاختلاف والمغايرة في قوله ﷻ :" إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ فهو أنه معنى مباين لسابقه؛ لأنه حديث عن إلقاء الوحي، والتأكيد على ثقل أعبائه، وتنوع مشقاته، واتساع تبعاته، وذلك "لما في القرآن من الأمر والنهي والحدود والفرائض"[٣]، ولقد عرض الشيخ أبو موسى الذي تستضئ الدراسة أبدا بكلامه= لما يشبه هذا في كلام الباقلاّني[٤]، وعدّه استئنافا، و قياسا عليه يمكن القول بأن ههنا استئنافا في قوله ﷻ: " إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا"، وكأنه بمثابة العلة إلى قيام الليل في المعنى السابق، وكأن المعنى: قم الليل، واشتغل بالعبودية، واترك نصيب نفسك؛ لأنا سنلقي عليك قولا ثقيلا يستلزم استعداد النفس لإشراق جلال الله فيها.

يمكن القول بأن خصوصية النظم التي جانست بين المعاني المتباعدة، وجاذبت بين المعاقد المتباينة تكمن في تلك الصلة في قوله :" قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٥٤٩/٢ بتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا ط/١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١هـ – ١٩٩٠م. والجِرَانُ: "بَاطِن الْعُنُق". المحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة ٣٨٤/٧.بتحقيق هندوي ط/١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

(٢) ينظر: الروض الداني = المعجم الصغير للطبراني ٢٧٦/٢ بتحقيق محمد شكور ط/١ المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ٤٧٥/٤ بتحقيق عبدالله محمود شحاتة ط/١ دار إحياء التراث بيروت ١٤٢٣هـ.

(٤) ينظر: الإعجاز البلاغي صـ ٢١١.

تَرْتِيلاً ﴿٤﴾؛ حيث ذكر الله ﷻ أمر رسول الله ﷺ بقيام الليل، وأخبر بوجوبه في حقه ﷺ، ووجوب تبتله ﷺ إلى الله بقراءة القرآن، ولم يقل النظم العالي مثلا:" يا أيها المزمل، نم الليل وانعم هنيئا"؛ وذلك لأن ذكر قيام الليل، وتوجبه على النبي ﷺ، والأمر بقراءة القرآن، والانشغال بمزيد الإقبال على الله ﷻ ... كل ذلك يعطف عنان الكلام الأول ناحية الكلام الثاني؛ فالذي يقوم الليل، مقبلا على الله، متجردا لعبادته يُصيِّر النفس= مستعدةً للنهوض بهذا الأمر الجلل، والوفاء بتلك الأعباء الثقال،= قادرةً على احتمال هذا القول الثقيل، وهو "الْقُرْآنُ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الَّتِي هِيَ تَكَالِيفُ شَاقَّةٌ ثَقِيلَةٌ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ عَامَّةً، وَعَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً، لِأَنَّهُ يَتَحَمَّلُهَا بِنَفْسِهِ وَيُبَلِّغُهَا إِلَى أُمَّتِهِ"(١)، وهكذا يُستولَد الكلام الثاني من رحم الكلام الأول عن طريق هذا التناسل الذي يُصَيِّرُ آخر المعنى الأول يوطئ لأول المعنى الثاني؛ فتتحدر المعاني المختلفات في الظاهر تحدرا سلسا؛ فتتآلف متساندة، بعد أن كانت عند النظرة الأولى متباعدة.

(١) تفسير الرازي ٣٠/٦٨٤.

المطلب الثاني

الآيات من السادسة حتى التاسعة

من تأليف المختلف ما ترصده العين عند قوله ﷻ: "إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩.

بالتهدي بكلام الباقلّاني، وبتقريب الشيخ أبي موسى إياه يمكن استبصار طرائق النظم في تأليف المختلف في هاته الآيات؛ فقد ضمت الآيات خمسة معان: أربعة منها من قبيل تأليف المختلف، وهذه حري بالبحث أن يقف عندها مليا،= وجملة خامسة من قبيل تأليف المؤتلف تنبه الدراسة عليها، وتشير مجرد إشارة إليها؛ لِيَبِينَ الفرق بين المطارح المتباعدة، والمعاطف المتساندة.

أما التباعد فهو أن الجملة الأولى:" إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا" إخبار من الحق ﷻ بأن صلاة الليل "أشد وأثقل على المصلي من صلاة النهار"(١)، ومن ثم فهي أعظم أجرا، وأحسن لفظا؛ لانقطاع الحركات بالليل، وهدوء الأصوات فيه؛ فهو أدعى للإخلاص.

والجملة الثانية:" إن لك في النهار سبحا طويلا" إخبار من المعبود ﷻ لنبيه ﷺ بأن النهار فرصة للتقلب في المهمات، وتدبير الشئون الحياتية.

والجملة الثالثة:" واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا" أمر بالذكر، والتبتل الذي هو الإخلاص والانقطاع، أي " أخلص إليه إخلاصا"(٢).

(١) فتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين المقدسي ١٩٤/٧ بتحقيق نور الدين طالب ط/١ دار النوادر ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

(٢) تفسير مجاهد ٦٧٩/١ بتحقيق د. محمد عبدالسلام أبو النيل ط/ ١ دار الفكر الإسلامي الحديثة بمصر ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

والجملة الرابعة:" رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو" إخبار بربوبيته ﷻ للمشارق والمغارب، وبوحدانيته ﷻ حيث لا إله غيره، ولا معبود بحقٍّ سواه.

والجملة الخامسة:" فاتخذه وكيلا"، بمعنى فاتخذه " كفيلا بما وعدك من النصر والإظهار"(١)، وهذا أمر بتفويض كل الأمور إليه ﷻ. هذه هي المعاني الخمسة، وهي كما يبدو معانٍ مختلفة، وأبواب من الكلام متباينة.

أما طريقة تأليفها بشريف النظم، وعليِّ الضَّمِّ الذي أشار إليه الباقلاّني، ودندن حوله الشيخ أبو موسى – باركه الله – فذلك يكمن في أنه أردف الجملة الأولى التي هي إنباء عن عُظم قيام الليل من حيث مشقته على النفس من ناحية، ومن حيث عظيم الأجر المترتب عليه من ناحية أخرى بالجملة الثانية التي هي تقرير بامتداد النهار، واتساعه لتصريف المهمات الحياتية، وتدارك ما فات أيضا من الواجبات الليلية، وفي ذلك إشارة إلى أن الطريق الأمثل، والمنهاج الأقوم يقبع في عروة وثقى بين الدنيا والآخرة ... وكأن المعنى الثاني :" إن لك في النهار سبحا طويلا" هو الطرف المقابل الذي يتوازى مع الطرف الأول، وعلى هذا يلحظ أن المعنى الثاني الكامن في الجملة الثانية "إن لك في النهار سبحا طويلا" كأنه = في الظاهر – يطلب عكس المعنى الأول المرغب في الانصراف بالكلية إلى قيام الليل، والإقبال على قراءة القرآن، وأن ذلك هو اللاحب الأبرّ، والصراط المستقيم؛ لأنه أهدأ للنفوس، وأدعى للإخلاص، وتلقي الإشراقات العليَّة= إلا أنه في حقيقة الأمر مكمل له، وجزء منه، وبهذا يتآلف المختلفان، ويتصافح المتباعدان كما يعبر الشيخ دراز – رحمة الله عليه(٢).

ثم يجئ قوله ﷻ في الجملة الثالثة:" واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا" مع قوله في الجملة الرابعة:" رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو" مندمجين

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب = حاشية الطيبي على الكشاف ٩٦/١٦ بتحقيق د. جميل بني عطا ط/١ طبعة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م.
(٢) ينظر: النبأ العظيم صـ ٢٠٢.

أحسن ما يكون الاندماج، متآنسين أتم ما يكون التآنس، وما ذلك إلا بشريف النظم الذي عقد بين أطراف الكلام، وقارب بين أعطافه، فأصبح المعنيان كأنهما معنى واحد، يؤكد حقيقة واحدة هي أن التبتل الحق، والانقطاع الدائم، والإخلاص، والذكر السرمد ... كل هذا لا يكون إلا لمن هو أهل له، وليس كمثل من ملك المشرق والمغرب وما بينهما، وتفرد بالألوهية شيء، وهو السميع العليم، وكأن المعنى: واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا؛ لأنه رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو، ومن كان كذلك كان وحده المستحق للعبادة والانقطاع.

ثم تلحظ الدراسة تلاقيا بين هذه الحقيقة بشقيها المكوَّنين من المعنى الثالث والرابع مع الحقيقة السابقة بعِطفيها المتقابلين من إحياء الليل بالصلاة، وقراءة القرآن، وارتقاب الآخرة، وتوظيف النهار لعوارض الحاجات، وأقضية الدنيا.

ويلحظ طريقة النظم المتمثلة في انعطاف أجزاء الكلام بعضها على بعض على نحو من التقابل، أو الثنائية بين المعاني في الظاهر، ثم بالتأمل يظهر ما بينها من تجانس وتآنس؛ فالمعنيان الأول والثاني :"إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا، إن لك في النهار سبحا طويلا" بينهما تقابلان: ظاهر، وخبئ:

فأما الظاهر فهو ذلك الماثل بين الليل والنهار، وأما الخبئ فقد سبق التنبيه عليه، حيث دلالة المعنى الأول على الإقبال على الله بالكلية، والتخلي عن حظوظ النفس ودواعيها، ودلالة المعنى الثاني على فسحة النهار وامتداده للتقلب فيما يجب، والتصرف فيما يهم؛ فلا تَفَرُّغَ لخدمة الله إلا بالليل.

والمعنيان الثالث والرابع:" واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو" وإن كانا في الظاهر متغايرين إلا أنهما متآنسان بشريف النظم، متقاربان بعليّ الضم أحسن ما يكون التآنس، وأكمل ما يكون التقارب، حتى كأنهما معنى واحد، وهذا المعنى بوجهيه معطوف على المعنيين السابقين – الأول والثاني – اللذين صيرهما شريف النظم كأنهما معنى واحد.

وهكذا تتساقط من الآيات بعض طرائق النظم في تأليف المختلف، وتتمثل في انعطاف المعاني المتقابلة بعضها على بعض على وجه يتلاقى فيه المعنيان المتقابلان في الظاهر نوعا من التقابل، وبعدها يكون عطف معنيين آخرين على هذين المعنيين المتقابلين ظاهرا، والعجيب أن المعنيين المعطوفين كذلك يكون بينهما نوع من التباين الذي يتحول إلى ائتناس وتناسج بسبب شريف النظم، وبتشجيع من عليٍّ الضم، وهكذا طريقة الكلام: معنىً ثم معنىً يُباينه أو يقابله، ومعنى آخر ثم معنى يباينه، ثم يعطف المعني الثاني ونظيره على المعنى الأول ونظيره، ولا يخفى ما في الكلام هنا من تأليف المختلف، وتأنيس المبتعد...

ثم تأتي الجملة الخامسة المتشبعة بالمعنى الخامس:" فاتخذه وكيلا"، وفيها يَبِينُ الفرق بين المؤتلف والمختلف؛ حيث يلحظ أن المعنى الخامس :" فاتخذه وكيلا" مترتب على المعنى الرابع:" رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو"؛ فالرابعة إخبار عن الله ﷻ بأنه ﷻ رب المشرق والمغرب، وأنه المتفرد بالألوهية، والخامسة أمر باتخاذه ﷻ وكيلا، وبتفويض الأمر إليه، وكأن المعنى: "أَنَّهُ لَمَّا ثَبَتَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَزِمَكَ أَنْ تَتَّخِذَهُ وَكِيلًا، وأن تفوض كل أمورك إليه"(١)، "وما دام – سبحانه – مختصًا بالربوبية والأُلوهية فقد وجب على كل عاقل أن يتخذه وكيلا"(٢).

بقي التنبيه على ما بين المفصلين من تأليف المختلف، وذلك حيث ينتهي المفصل الأول عند قوله ﷻ:" إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا"، ويبدأ المفصل الثاني مع قوله ﷻ :" إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا"، ولا شك أن لكل واحدة من هاتين الجملتين معنى يغاير معنى الجملة الأخرى.

(١) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي ٣٨/٤ بتحقيق محمد باسل عيون السود ط/١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.

(٢) التفسير الوسيط مجمع البحوث بالأزهر الشريف ١٦٣٨/١٠ ط/ ١ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩٣هـ– ١٩٧٣م.

الجملة الأولى تخبر عن أمر الوحي، وأعباء الرسالة، وثقل التكاليف المنوطة برسول الله ﷺ " إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا"، فهي "إشارة إلى ما حمل من النبوة والوحي"(١).

والجملة الثانية إخبار من الحق ﷻ بثقل صلاة الليل، ومشقتها على النفس، ومن ثم كان أجرها أعظم، وهي إلى الإخلاص أقرب، وعليه أدل؛ لانقطاع الحركات بالليل، وهدوء الأصوات فيه؛ فهو أدعى للخشوع، وأبعد عن الرياء؛ مما يستدعي تحسين الصوت بالقراءة، وخشوعَ القلب "لفراغه من سُفْلِ الدنيا"(٢).

هذا الانتقال بين المفصلين في الظاهر لا يكشف عن دقة الخلوص بين المعنيين كشفا صريحا، ولكنه يومئ إليه، ويدل عليه، ويغري بتتبعه؛ لآن قوله ﷻ في نهاية المفصل الأول: " إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا" يمثل الجسر الذي استعان به النظم للوصول إلى مفتتح المفصل الثاني الذي يقول:" إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا"؛ وذلك لأن جملة:" إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا" تقع من السورة موقع القلب؛ فهي تمثل الأصل فيما سيقت السورة من أجله؛ إذ تخبر عن الحق ﷻ بأمر الوحي، وثقله، وهذا يستدعي التهيئة لقلب رسول الله ﷺ حتى يقوى على ازدمال الأعباء، واحتمال التكاليف، وكأن المعنى: إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا شاقا لا يقوى على احتماله إلا من هُيِّئَ له، واستعد لتنزله، بقيام الليل، والتبتل إلى الله.

بذلك تكون الآية الخاتمة للمفصل السابق، والتي تقول:" إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا" قد التقطت خيط الكلام السابق الذي هو نداء الرسول ﷺ وملاطفته، وتحفيزه للنهوض بما طُلب إليه من تكاليف الرسالة العظمى، ثم فتحت الباب لذكر وسائل التهيئة، وأسباب القوة على احتمال ذلك الأمر: من قيام الليل،

(١) تفسير الرازي ٦٨٨/٣٠.
(٢) تفسير ابن فورك ٧١/٣ بتحقيق سهيمة بخاري ط/١ جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

وذكر الله ﷻ، والتبتل إليه، والاستعانة به، وتفويض الأمر كله إليه، ومن هذا الباب انحدر الكلام إلى فائدة قيام الليل، وكونه أعظم نفعا، وأحسن قيلا، وإلى الله أهدى سبيلا، وإلى الحديث عن ذكر الله والتبتل إليه، والإخبار بأنه ﷻ رب المشرق والمغرب، وأنه لا إله هو، ومن ثم فلا أحد أحق منه بتفويض الأمر إليه، وحسن التوكل عليه.

ووحدة المُتَّجَهِ في الآيتين تمثل لحمة لا تنكر؛ فالله ﷻ هو الذي يلقي على رسوله ﷺ ذلك القول الثقيل الوزن، العظيم القدر، المعجز كلّ البشر، والله ﷻ هو كذلك – ولا أحد سواه – من يملك الإخبار، والقطع بما هو أشد وطئا، وأقوم قيلا، ويختار لنبيه من طرائق التهيئة، ووسائل الإعداد لهذا الأمر ما يشاء، وكأن الفاعل في المعنى واحد في الآيتين؛ بدليل وحدة المتكلم فيهما.

المبحث الثاني

تأليف المختلف في آيات المعقد الثاني للسورة الكريمة.

المطلب الأول:

بين المعقدين الأول والثاني

وبيان معاني المعقد الثاني.

أولا: بين المعقدين الأول والثاني

من تأليف المختلف ما ترصده العين عند قوله ﷻ:

"وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ﴿١٦﴾ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾.

هذه الآيات العشرة تمثل المعقد الثاني من معاقد السورة الثلاثة الكبيرة؛ على أنه يحسن التذكير بأن المقطع الواحد قد يستضيف في بَهْوِهِ وباحاته عددا من النزلاء قد يقلون، وقد يكثرون، والمهم أن هؤلاء النزلاء يمثلون المفاصل الصغيرة المتضافرة فيما بينها، والساهرة على خدمة ذلك المعقد الكبير، ولا بدع

في ذلك؛ فـ " اختلاف المعاني وتنوعها أمر لا محيد عنه في الكلام، وليس يعني بالضرورة تعدد الأغراض، فذلك شيء قد يكون أو لا يكون"(١).

وربما يحسن التنبيه إلى ما ترصده الدراسة من تقابل بين المعقدين: السابق الممتد من أول السورة حتى الآية التاسعة منها، والمعقد الحالي المتدثر بهذه الآيات العشرة، ومكمن هذا التقابل من جهتين:

الأولى: أن آيات المعقد السابق (١-٩) عمودها، وقطب رحاها الحديث عن أحوال الإنسان مع خالقه حيث قيام الليل، وترتيل القرآن، والتهيؤ للقيام بتكاليف الدعوة، وذكر الله ﷻ، والتبتل إليه، واتخاذه وكيلا، وتفويض الأمر إليه ... إلخ، على عكس هذا المعقد المنصوب فيه الحديث عن أحوال الإنسان مع الخلق من صبر على أذاهم، والأمر بهجرهم، ومجانبة أفعالهم، والتهوين من شأنهم إزاء قدرة الخالق ﷻ، والأمر بوكلهم إلى الله، وبإمهالهم حتى يلقوا جزاءهم العادل، وربما كان هذا التقابل بين المعقدين من خصوصيات تأليف المختلف – كما ألمح إليه الشيخ أبو موسى(٢).

الجهة الأخرى: أن آيات المعقد الأول يدور الحديث فيها عن أحوال السعداء، فكل ما اشتمل عليه المقطع من قيام الليل، وترتيل القرآن فيه، وذكر الله تعالى، والتبتل إليه، واتخاذه ﷻ وكيلا؛ إذ لا رب سواه... كل ذلك إنما يحرص عليه السعداء الذين سبقت لهم الحسنى من رب العالمين، بخلاف الأشقياء الذين كانوا مرتكز الآيات في المعقد الثاني، حيث نص عليهم (وذرني والمكذبين ...إلخ)، وسرد بعض أحوالهم، وطلب من النبي ﷺ أن يمهلهم حتى يروا العذاب، وذكر ما ينتظر هؤلاء الأشقياء من الأنكال، والجحيم، والطعام الوخيم، والعذاب الأليم، ومن أشقى الأشقياء –لا جرم – فرعون الذي حشر

(١) الإعجاز البلاغي صـ ٢٠٨.
(٢) ينظر: الإعجاز البلاغي صـ ٢١٣.

الناس ونادى أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله أخذا وبيلا... وهكذا تبدو المقابلة بين المعقدين مرة أخرى.

هذا ما رصدته الدراسة من تقابل بين المعقدين السابق والحالي. أما تأليف المختلف بين المعقدين فأول ما ترصده العين من تأليف المختلف هنا ذلك التأليف القائم بين الجملة الأولى من جمل هذا المعقد:" واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا" والجملة الأخيرة من المعقد السابق:" رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا"، وربما كان ذلك في أن أردف= الجملة الأولى التي هي إخبار بقيومية الله ﷻ على المشارق والمغارب، وانفراده بالألوهية، ووجوب تفويض الأمور إليه= بالجملة الثانية التي هي أمر بالصبر على المعاندين، وبهجر أفعالهم بالقلب والهوى مع مداراتهم من غير مداهنة ولا مكافأة، وكأن المعنى: رب المشرق والمغرب الذي لا إله إلا هو يوجب عليك أن تفوض الأمر إليه، ومن مقتضيات ذلك أن تصبر على ما يقوله كفار قريش، وأن تهجرهم هجرا جميلا، وبذلك يكون المعنى الأول قد فتح الباب للمعنى الثاني عن طريق أخذ الجملة الأخيرة في المعنى الأول بخيط الكلام نحو المعنى الثاني؛ وذلك أن جملة:"فاتخذه وكيلا" تمثل المعبر الذي عبر منه البيان من المعنى الأول السابح في فلك الربوبية المطلقة، وملك المشرق والمغرب، والتفرد بالألوهية= هذه الصفات المنادية بتفويض الأمر إليه، وحسن التوكل عليه "فاتخذه وكيلا"، وهذا التفويض ينادي على المعنى الثاني:"واصبر على ما يقولون"، وكأن المعنى: إذا فوضت أمرك إليه كَوْنَهُ ربَّ الأرباب؛ فمن تمام ذلك التفويض أن تصبر على أذى قريش، ولا تبتئس بما كانوا يفعلون، وأمهلهم على العذاب قليلا؛ فإنهم يرونه بعيدا، ونراه قريبا، وهكذا تكون جملة:" فاتخذه وكيلا" جسرا على ظهره عبر البيان من المعنى الأول إلى المعنى الثاني؛ ليصبح المعنيان متلاحمين أَسَدَّ ما يكون التلاحم، منسبكين أحكم ما رَأَى راءٍ من سبك.

ثانيا: بيان معاني المعقد الثاني.

تعود الدراسة للمقطع الثاني وآياته العشر، وبمراجعة هذه الآيات يمكن القول بأنها تمثل مجموعة من المعاني الجزئية المتباينة على النحو التالي:

المعنى الأول: "وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ۝١١ وفيه الأمر بالصبر على صناديد قريش، وهجرهم – "والهجر الجميل: هو الهجر في ذات الله"(١) – ومجانبة أفعالهم مع مداراتهم، والإغضاء عنهم، وترك مكافأتهم، وتفويض أمرهم إلى الله ﷻ، وإمهالهم قليلا ريثما تحل عليهم العقوبة.

المعنى الثاني: إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ۝١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤، وفيه إخبار عن بعض ما ينتظر المكذبين من صنوف العذاب في يوم شديد الأهوال ترجف الأرض منه، وتخر الجبال هدا؛ فتكون كثيبا مهيلا.

المعنى الثالث: إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ۝١٦ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ۝١٨، وعمود المعنى في هذه

(١) تفسير الطبري = جامع البيان في تأويل القرآن ٦٨٩/٢٣ بتحقيق أحمد شاكر ط/ ١ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

الآيات تهديد أهل مكة بمثل ذلك الأخذ الوبيل، أي الشديد[١] الثقيل الذي حاق بفرعون لما عصى الرسول المرسل إليه، وتخويفهم بيوم القيامة الذي تشيب من هوله الولدان، وتنشق السماء، وأنه واقع لا محالة.

المعنى الرابع: إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾. وأساسه التذكير، ورَكْزُ مراكز الإحساس عند القوم، ليشتغل بالطاعة، ويحترز عن المعصية كل من كان له قلب، أو ألقى السمع، وهو شهيد؛ فأراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا.

هذه المعاني المتنوعة قد دمجها القرآن دمجا عجيبا، وآنس بين مختلفاتها مؤانسة معجزة، وفيما يلي تحاول الدراسة فقه طرائق هذا البيان العالي في إفراغ هذه المعاني المختلفة إفراغا واحدا، حتى بدا الكلام المتضمن هذه الأبواب من المعاني، وكأنه كلام واحد نماه أصل واحد، وخرج من مشكاة واحدة، متوجها لهدف واحد؛ لتحقيق غاية واحدة.

(١) ينظر: معاني القرآن للأخفش ١/٢٠٠ بتحقيق د. هدى قراعة ط/١ الخانجي بالقاهرة ١٤١١هـ- ١٩٩٠م.

المطلب الثاني:

الآيات من العاشرة حتى التاسعة عشرة:

أما التأليف بين المعنيين: الأول: "وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴿١٠﴾ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾

والثاني: "إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾، فيتمثل في أخذ الطرف الأخير للمعنى الأول بحجز المعنى الثاني؛ وكأنه لما ذكر الصبر على المكذبين، وهجرهم، وشفعه بطمأنة الرسول ﷺ بعدم الاكتراث بهم استدعى ذلك الحديث عن صنوف العذاب المنتظرة هؤلاء المعاندين؛ فتحدر الكلام تحدرا سلسا وخرج من رحم المعنى الأولِ المعنى الثاني، وكأنه يقول: اصبر علي أذاهم، وامض في سبيل دعوتك غير عابئٍ بهم فسيكفيكهم الله ببعض ما عنده من صنوف العذاب.

ويمكن القول بأن اللحمة بين المعنى الثاني= الدائر حول الأنكال والجحيم، والطعام الوخيم غير المستمرأ، ورجفة الأرض، وتحول الجبال إلى كثبان منثورة الذرات،= والمعنى الأول الملفوف ببرود التصبير والمؤانسة للرسول الكريم ﷺ، وتهوين أمر المشركين عليه= هذه اللحمة تجليها الخيوط الدقيقة التي نسجتها الجملة الأخيرة في المعنى الأول:"ومهلهم قليلا" من الطمأنة للرسول ﷺ، والبشارة بعذاب المعاندين المفهوم من طلب الإمهال القليل، وعدم الاغتمام أو الاهتمام بهم ... وكل هذا – لاجرم – يشحذ همته ﷺ، ويهيئه للتطلع لما عساه أن يحل بهؤلاء القوم من العذاب، وما ينتظرهم من صنوف التنكيل في الدنيا والآخرة، ولا شك أن في ذلك تأنيسا لخاطر الرسول ﷺ، وتقوية لمواضي عزمه ﷺ، وتجديدا لبواعث طاقته للتحمل في سبيل الدعوة، وبعثا لسوابق همته، وبهذا تكون نهاية المعنى الأول قد فتحت الباب للمعنى الثاني؛ فلم يدخل على النفس دخول الفجأة، ولكن قدوم الأنيس

المنتظر، والحبيب المرتقب، وهكذا تتحدر المعاني ويؤلف بينها شريف النظم، ويبلّ أرحامها عليّ الضم، من غير تبتير ولا إعياء.

أما التأليف بين المعنيين: = الثاني: "إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴿١٤﴾.

=والثالث:"إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾ = فإن الخصوصية هنا تتمثل في أنه أردف الجملة الأولى التي هي إنباء عن بعض ما ينتظر المكذبين من صنوف العذاب في يوم شديد الأهوال ترجف الأرض منه، وتخر الجبال هدا؛ فتكون كثيبا مهيلا= بالجملة الثانية التي هي تهديد أهل مكة بمثل ذلك الأخذ الوبيل الثقيل الذي حاق بفرعون لما عصى الرسول المرسل إليه، وتخويفهم بيوم القيامة الذي تشيب من هوله الولدان، وتنشق السماء، وأنه واقع لا محالة، وفي ذلك إشارة إلى أن السيرة المثلى، والطريق الأقوم يتمثل في اتباع الهدى، وتصديق هذا الرسول الكريمﷺ؛ حتى لا يكون مصيركم مصير فرعون وقومه الذين كذبوا رسولهم؛ فأخذهم الله أخذا وبيلا ...

وكأن المعنى الثاني المتعرض لعذاب الدنيا، وهو غرق فرعون وقومه :" إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا .... إلخ" هو الطرف المقابل الذي يتوازى مع الطرف الأول المتوفر على تعديد صنوف من عذاب الآخرة.

فالأنكال والجحيم والطعام الوخيم المذكورة في حق المكذبين من أهل مكة في المقطع الأول= هذه العذابات إنما هي أيضا من نصيب فرعون يوم القيامة.

كما أن الغرق الذي سلطه الله على فرعون وقومه لما كذبوا رسول الله إليهم= هذا الغرق ليس عن كفار قريش ببعيد؛ فالأنكال والجحيم ينتظر المكذبين أولى النعمة من قريش، وكذلك فرعون وقومه.

والغرق الذي حاق بفرعون ينتظر كذلك من تَقَيَّلَه وتقفاه، وتبعه في عماه من صناديد قريش المنعمين المترفين، حيث التقابل بين الترف والنعيم في الدنيا، والأنكال والجحيم، والزقوم والحميم في الآخرة، هذا من جهة، ومن ناحية أخرة هناك تقابل بين الغرق، وهو من عقاب الدنيا، والجحيم الذي هو من عذاب الآخرة.

وعلى هذا يلحظ أن المعنى الثاني الكامن في الجملة الثانية " إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا .... إلخ" كأنه = في الظاهر – متباعد عن المعنى الأول، ومباين له؛ فالمعنى الأول فيه تهديد بصنوف من عذاب الآخرة، وأحوالها وأهوالها ، وكل ذلك لأهل مكة:" إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما"، وكل ذلك في دار المقرّ.

أما المعنى الثاني ففيه ذكر لعذاب الدنيا، وتخويف بما جرى لفرعون في دار الممرّ.

وهذا التضاد يوهم التباعد بين المعنيين؛ ويغري بالقول بالتشارد والتقاطع؛ إذ يا بعد ما بين الدنيا والآخرة = إلا أن المعنى الثاني في حقيقة الأمر مكمل للأول، وجزء منه؛ وبهذا يتآلف المختلفان، ويتآنس المتطارحان، وما ذاك إلا بشريف النظم وعليّ الضم الذي تحدث عنه الباقلّاني، وقام على تقريبه الشيخ أبو موسى.

ويلحظ طريقة النظم المتمثلة في خصوصية التقابل بين المعاني المتناظرة في انعطاف أجزاء الكلام بعضها على بعض على نحو من المواجهة، أو التباين الظاهري، ثم بالتأمل يظهر ما بينها من تقارب وائتلاف بسبب شريف النظم، ومساعدة عليّ الضم.

ومن المعتبر هنا الإشارة هنا إلى وحدة الفاعل تلك اللحمة التي جعلت أجزاء الكلام تتعاطف في تماسك وسبك عجيبين، ولعل هذا من خصوصيات

تأليف المختلف بشريف النظم وعليّ الضم التي ألمح إليها القاضي أبو بكر، ووقف عندها الشيخ أبو موسى.

أما التأليف بين المعنيين: الثالث:"إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولاً شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمًا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولاً ﴿١٨﴾.

والرابع: إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴿١٩﴾ فيظهر في تلك اللحمة التي عقدت بين أطراف الكلام، وصيرت المعنيين معنى واحدا، حيث أردف النظم العالي جُمَلَ المعنى الأول= القائم على تخويف المشركين، وتهديدهم بمصير فرعون لما كذب الرسول إليه= بجملة المعنى الثاني القائم على الإشارة إلى طريق الحق لمن أراد سلوكها، وبيان أن ما سبق من آيات إنما هو تذكرة لباغي الخير، والخائف من عذاب الله ﷻ .

على أن المعنيين متباينان في الظاهر، ولكن القرآن الكريم المعجز جمع بينهما جمعا عجيبا فصيرهما شيئا واحدا، فتلاشى ما بينهما من أحياز، وانقطع ما بينهما في الظاهر من مسافة، وكأن المعنى: إن ما سبق من آيات، و ما فيها من بيان لأحوال الناس ومصائرهم: السعداء منهم، والأشقياء – في الدنيا والآخرة – يجب أن يكون باعثا للسير في الطريق المستقيم، وأن يكون تذكرة لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا.

ومن المعتد به هنا الإشارة إلى هذا التقابل الملحوظ بين= المعنى الأول المتعلق بالمشركين ومصائرهم، والمشير إلى فرعون الذي هو رأس الشرك، وأُسُّ التكبر= والمعنى الثاني المتفيئ ظلال الذكرى التي هي من نصيب المؤمنين.

ويلحظ شدة الترابط بين هذه الآية :" إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴿١٩﴾ وما سبقها من آيات السورة من بدايتها في المقطعين السابق والحالي، فهي فاصلة جامعة للكل؛ راجعة للكل؛ لأن السورة بدأت ببيان أحوال السعداء، وما يتعلق بذلك من أمور الآخرة، من القيام والذكر وتلاوة القرآن، والتبتل إلى الله، وتفويض الأمر إليه، وفي ذكر هاته الأحوال تذكرة تنادي يا باغي الخير أقبل؛ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا.

كما أن السورة في ثاني معاقدها تحدثت عن أحوال الأشقياء، وما ينتظرهم من أنواع العذاب في الآخرة، وشفعته بعذاب الدنيا: الغرق الذي أهلك فرعون وقومه، والأخذ الوبيل، وفي هذا تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا.

وعرضت السورة كذلك لبعض أهوال القيامة؛ ليرجع عن غيه كل عنيد، وهذه – لا شك – تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا....

وهكذا جاءت آية :"إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴿١٩﴾ فاصلةً جامعة لآيات السورة في المعقدين: الأول والثاني، وهكذا تجدها – كما يقول الشيخ أبو موسى – " ترمي روابط أخرى على الآيات السابقة، وتعقد معها أسبابا، فيزداد تشابك الكلام"(١)، ثم يختم ذلك بالتذكير بقول الباقلاّني – عن مثل هذه المعاني المختلفة–: " قد جعلها النظم البديع أشد تآلفا"(٢).

(١) الإعجاز البلاغي صـ ٢١٣. وكلام الشيخ إنما هو عن آية أخرى، لكن لما كان صالحا للتنزيل على هذا الموضع رأت الدراسة الاستئناس بهذه الأنفاس الطاهرة للعلماء الربانيين.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني صـ ١٩٤.

المبحث الثالث:

المعقد الثالث للسورة الكريمة

المطلب الأول:

بين المعقدين الثاني والثالث:

يتمثل هذا المعقد في الآية العشرين، وهي آخر آية في السورة الكريمة، وفيها يقول الحق ﷻ: " إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾.

وقبل الدخول إلى منعطفات هذا المعقد تجدر الإشارة إلى ما بينه وبين المعقد السابق من تأليف المختلف، والمعقد السابق يشتمل على أكثر من معنى، ويدور حول الحديث عن أحوال الإنسان مع الناس، وضرورة الصبر على أذاهم، والأمر بهجر أفعالهم، ومجانبتها، والاستخفاف بمكرهم إزاء قدرة الخالق ﷻ، والأمر بتفويض أمرهم إلى الله، وبإمهالهم قليلا ريثما يحين العقاب.

أما هذا المعقد فمحصَّله ثناء الله ﷻ على نبيه ﷺ، ومن تبعه من الموحدين الذين بادروا بالطاعة، وحملوا أنفسهم على قيام الليل، وفيه كذلك الترخص في قيام الليل، والوعد بالجزاء العظيم على أعمال الخير.

ويمكن الإشارة هنا إلى خصوصية من خصوصيات تأليف المختلف تكمن فيما عبر عنه الشيخ أبو موسى بتوطئة الأكناف(١)، وهو أن تجد آخر الكلام السابق كأنه يوطئ للكلام اللاحق؛ فيحصل بذلك التلاقي بين الكلامين، وتنعدم الأحياز؛ حيث تلتقط الجملة الأخيرة من جمل المعقد السابق طرف الكلام في مقطعها في الوقت الذي تفتح فيه الباب بفاعليةِ هذا الخيطِ الدقيقِ الملتقَطِ= تفتح الباب للمعقد اللاحق، وبذلك تكون هذه الجملة نفقا أو جسرا من خلاله يعبر الكلام من المعقد السابق إلى المعقد اللاحق، والجملة التي تقوم بهذه المهمة هنا هي قوله ﷻ في نهاية المعقد السابق: "إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ فصراط الله المستقيم، وطريقه القويم المذكور في الآية إنما يقصده المؤمنون المتبتلون إلى الله، وعلى رأس هؤلاء جميعا سيدنا رسول الله ﷺ؛ فهو إمام الأتقياء، وقبلة المخبتين، "وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ"(٢) أجمين، ولا شك أن أصحابه – رضوان الله عليهم أجمعين – من أوائل المتبتلين، وهكذا تكون جملة :" إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا" كطائر له جناحان كبيران راح يبسط أحدهما= على المعقد السابق المحلق في سماوات الإنسان، وأحواله مع الناس، والمناداة بالصبر على مكرهم، ومكائدهم، وطلب مجانبة أفعالهم، وهجرها، والتهوين من تآمرهم إزاء قدرة الله ﷻ، والأمر كذلك بتفويض الأمر كله لله، والصبر قليلا حتى يُوَفَّوْا أعمالهم، ولا يقوى على ذلك إلا من اتخذ إلى ربه سبيلا.

(١) ينظر: الإعجاز البلاغي صـ ٢١٣.

(٢) قال ﷺ:" أنا سيد ولد آدم". مصنف ابن أبي شيبة = الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار ٣١٧/٦ بتحقيق كمال يوسف الحوت ط/١ مكتبة الرشد بالرياض ١٤٠٩هـ.

أما الجناح الآخر فمبسوط على المعقد الحالي المتمثل في مدح رسول الله ﷺ، وطائفة من الذين معه ممن سارعوا لمرضاة الله ﷻ، فـ "قاموا حتى تورمت أقدامهم فخفف الله ذلك عنهم"(١).

بذلك لا يكاد المرء يكمل قراءة المعقد السابق حتى يتسارع إلى عقله المقطع الحالي عن طريق هذا التناجي الرهيف بين المعاني الذي "يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد"(٢).

(١) السنة للمروزي ٧٠/١ بتحقيق سالم أحمد السلفي ط/١ مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٨هـ.
(٢) إعجاز القرآن ٧٠.

المطلب الآخر:

بين معاني المعقد الأخير:

الآية الأخيرة في سورة المزمل، وإن كانت تمثل معقدا واحدا سبق بيانه[١] إلا أنها تضم بين حروفها النورانية أكثر من معنى، ولا بدع في ذلك؛ فـ " اختلاف المعاني وتنوعها أمر لا محيد عنه في الكلام، وليس يعني بالضرورة تعدد الأغراض، فذلك شيء قد يكون أو لا يكون"[٢].

جملة:" إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ" تحوي معنىً محصوله رضا الله ﷻ عن رسوله ﷺ، وعن النفر الذين قاموا الليل، وكانوا حريصين على مرضاته فـ" كَانُوا يقومُونَ جَمِيع اللَّيْل مَخَافَة أَن ينقصوا من الْمِقْدَار الْمَفْرُوض."[٣].

وجملة:" وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ" معنى ثانٍ مفاده أن الله وحده من يعلم مقادير أجزاء الليل والنهار[٤].

وجملة:" عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآن" لها معنى ثالث مغاير لما قبلها؛ إذ تخبر عن علم الله تعالى بمشقة الأمر بقيام الليل، وصعوبة إحصاء الجزء المطلوب قيامه على وجه الدقة، وأنه – سبحانه – رحمةً بهم خفف عنهم من قيام الليل؛ حيث وكل الأمر إلى الوسع والطاقة، فليقم كل مسلم ما تيسر له من الليل، وإنما "عبر عن الصلاة بالقراءة، لأنها بعض أركانها"[٥].

وجُمَلُ=:" عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ

(١) ينظر: صـ ٦٩ من هذه الدراسة.
(٢) الإعجاز البلاغي صـ ٢٠٨.
(٣) تفسير السمعاني ٨٣/٦ بتحقيق ياسر إبراهيم، وغنيم عباس ط/١ دار الوطن بالرياض– السودية ١٤١٨هـ–١٩٩٧م.
(٤) ينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي ١١٤٦/١ بتحقيق صفوان عدنان ط/١ دار القلم، والدار الشامية – دمشق، وبيروت ١٤١٥هـ.
(٥) الكشاف للزمخشري ٦٤٣/٤ ط/ ٣ دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧هـ.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيم".

= هذه الحزمة من الجمل فيها من تأليف المختلف قوله ﷻ:" عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه" ومعناه مغاير لما قبله؛ فهو يتحدث عن أصناف من الناس علم الله تعالى وجودهم في المؤمنين، وهم المرضى، والضاربون في الأرض للتجارة، والمجاهدون في سبيل الله ممن لا يقوون على قيام الليل؛ إما لمرضهم، وإما لاشتغالهم في النهار بالأعمال الشاقة من الجهاد أو التجارة.

هذه معانٍ أربعة قد ألف بينها شريف النظم، وآنس متشاردها عليٌّ الضم.

أما عن تأليف المختلف بين المعنى الأول= في الآية الكريمة:" إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ" المعنية بمدح الرسول ﷺ وصحابته الأطهار الذين جاهدوا أنفسهم وراحوا يقطعون الليل قياما على أقدامهم، ويتحرون القدر المطلوب قيامه.

= والمعنى الذي يليه المعبر عنه بجملة:" وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ" المفاد منها أن الله وحده من يعلم مقادير أجزاء الليل والنهار.

= ذلك التأليف يتمثل في أن البيان العالي ساق المعنى الثاني إلى المعنى الأول مساق التنظير؛ حيث اجتهد الرسول الكريم ﷺ وطائفة من أصحابه في تقدير أجزاء الليل؛ حتى يقعوا على القدر المطلوب قيامه؛ فأخبرهم الله ﷻ أنه وحده من يعلم أجزاء مقادير الليل، فجاء هذا المعنى:" وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ" كأنه قاعدة عامة، أو نظرية مقطوع بها بحيث لا يطمع أحد في الوقوف من تلقاء نفسه من غير معونة من الله على حقيقة مقادير أجزاء الليل، ومن هنا سيق المعنى الثاني إلى المعنى الأول مساق التنظير، وتلك من خصوصيات تأليف المختلف في النظم العالي، وكأن المعنى: لقد علم الله مجاهدتكم أنفسكم أنت وأصحابك في تحري الدقة لإصابة القدر المطلوب قيامه من الليل، وهو سبحانه من يعرف حقيقة هذا القدر.

أما عن تأليف المختلف= بين المعنى الثاني في الآية الكريمة المتمثل في قوله تعالى :" وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ" الدائر كما سبق حول علم الله المطلق بحقيقة مقادير أجزاء الليل.

= والمعنى الثالث المستكن في قوله تعالى:" عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآن" المتمثل في علمه ﷻ الله بصعوبة قيام الليل على النفس، ومشقة إحصاء الجزء المطلوب قيامه على وجه الدقة، ورحمة الله تعالى بخلقه؛ حيث رخص لهم في عدم قيام الليل، وجعله تطوعا.

= هذا التأليف بين هذين المعنيين المتباينين يتمثل في أن النظم العالي ساق المعنى الثاني إلى المعنى الأول مساق التفريع، وكأن= الأمر بقراءة ما تيسر من القرآن المُفْهِم لقيام ما تيسر من الليل الناطق بتخفيف الحكم عليهم من الوجوب المدلول عليه بالأمر السابق في أول السورة:" قم الليل إلا قليلا... إلخ" إلى التطوع المفهوم من قوله تعالى:" ما تيسر".

= كأن هذا الأمر استفرعه البيان من جملة المعنى السابق في قوله ﷻ:" " وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ"؛ فتقدير الله ﷻ لمقادير أجزاء الليل، وعلمه سبحانه بها على وجه الشمول والإحاطة نجم عنه، أو تفرع منه الترخيص في قيام الليل لمن قدر عليه على سبيل التطوع، وليس الوجوب، ذلك الترخيص المنبثق أصالة من علم الله تعالى بعجزهم عن الإحصاء والقيام:" عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآن".

أما عن تأليف المختلف بين المعنيين: الثالث= المتمثل في قوله ﷻ:" عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآن" هذا المعنى الدال على صعوبة قيام الليل على النفس، وكذلك مشقة إحصاء الجزء المطلوب قيامه على وجه الدقة، وترخيص الله – تعالى – لهم في هذا الأمر، وجعله تطوعا.

= والرابع الوارد في قوله ﷻ:" عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه "، وهذا المعنى كما لا يخفى يتناول بعض أصناف الموحدين من أمة النبي ﷺ

من المرضى، والضاربين في الأرض للتجارة، والمجاهدين في سبيل الله ممن تتوالى عليهم أسباب المشقة لو تركوا النوم، وقطعوا الأسحار سجدا وقياما.

=هذا التأليف يتمثل في مساق المعنى الثاني إلى المعنى الأول مساق التفريع أيضا؛ إذ إن علم الله تعالى بوجود هذه الحالات بين صفوف المسلمين: المرضى، والضاربين في الأرض للتجارة، والمقاتلين في سبيل الله كان سببا في الترخيص في النوم طول الليل إلا لمن أراد التطوع ولو بقدر قليل من الليل، فكأن المعنى: علم ربكم أنكم لن تحصوا مقادير الليل والنهار لأن منكم من يكون مريضا، ومنكم من يكابد الأسفار للتجارة طول النهار، كما أن فيكم كذلك المجاهدين في سبيل الله، من أجل ذلك رخص لكم في الأمر، وجعل القيام تطوعا.

كما تلحظ الدراسة كذلك ما بين المعنيين من توطئة الأكناف إذ أخذ آخر المعنى الأول المتمثل في جملة:" فاقرأوا ما تيسر من القرآن" بأول المعنى الثاني:" علم أن سيكون منكم مرضى.... إلخ" وكأن المعنى: لا حرج عليكم في النوم، وترك القيام، وقراءة ما تيسر من القرآن؛ فقد علم الله حرصكم على مرضاته، وعلم مشقة الأمر عليكم، وعلم كذلك أن سيكون منكم مرضى ....إلخ.

وهكذا تآنست المعاني المختلفة ذات المطارح المتباعدة، والمقاصد المتباينة؛ فبدت وكأنها معنى واحد، وما ذاك إلا لأنها سُبكتْ سبكا واحدا، وأُفرغت إفراغا واحدا، ويممت شطر غاية واحدة، وكان من وراء ذلك الإعجاز في التأليف= بين المختلفات من المعاني ما تفرد به القرآن الكريم من خصوصية في هذا الجانب تتمثل في شريف النظم وعليّ الضم = ذلك التأليف الذي نبه إليه الباقلاّني، وعمل على تقريبه كل من الدكتور : (دراز)، والدكتور: (أبو موسى). رضي الله عنهم أجمعين، ورفع قدرهم في عليين!.

الخاتمة

بعد حمد الله، والثناء عليه بما هو أهله، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه، وصفوته من خلقه تسجل الدراسة أهم النتائج التي توصلت إليها، وتمثلت في الآتي:

- كان القاضي أبو بكر الباقلّاني حيَّ القلب، حديد الذهن، شديد الإحساس بمعاقد الكلام التي يحصل عندها الانتقال من معنى إلى معنى آخر خاصة في القرآن الكريم، ومن ثم فُرِقَ له عن هذا الباب من تأليف المختلف؛ ليجعله واحدا من أهم وجوه الإعجاز؛ فكان أول من ورده، وجاء فيه بإشارات لم يوفق لمثلها سابقوه، فضلا عن معاصريه.
- "تأليف المختلف" عند الباقلّاني يقع بين المعاني المختلفة في القرآن الكريم علي وجه من شريف النظم، وعليّ الضم، وهناك فرق بين "تأليف المختلف" وبين غيره من علاقاتٍ قد يسبق إلى الفهم أنها هي. (١).
- في ضوء كلام الباقلّاني حددت الدراسة أبعادا لتسوير مصطلح (تأليف المختلف)، وَحَدَّتْهُ بأنه: تأليفُ المعاني المختلفةِ على وجهٍ من التَّسْبيكِ مُعْجِزٍ، ونَمَطٍ من الخُلوصِ بديعٍ.(٢).
- (شريف النظم)، و(عليّ الضم) الواردتان عند الباقلاني يمتد رواقهما ليشمل كل وجه من وجوه الائتلاف والتآنس، ويتسامق امتدادهما ليحيط بما به يحدث الترابط بين المعاني والجمل، وهو ما يشير إلى الروابط النظمية بين الجمل، والعلاقات الرَّحِمِيَّة بين المعاني.
- كان من بركات إخلاص القاضي أن هيأ الله له شيخين من كملة هذا الزمان وبُصَرَائه: د.محمد عبدالله دراز، ود.محمد أبو موسى؛ لالتقاط إشارته حول تأليف المختلف؛ فطفقا يستفرعان مسائلها، ويستبطنان أغوارها، ويستكشفان تحت سراديبها كل خبئ تالد؛ ليستنبتا في عقول الأجيال كل طريف، ولا يوجد – فيما أعلم – من يوم أطلق الباقلّاني إشارته إلى يوم

(١) ينظر: صـ ١١ وما بعدها من هذه الدرسة.
(٢) ينظر: صـ ١٦ من هذه الدرسة.

الناس هذا من تحدث عن تأليف المختلف كوجه من وجوه الإعجاز على الوجه الذي تناولاه، وبالنحو الذي بيناه.

- سَمَّى الشيخُ دراز ما قرره من وجوه لتأليف المختلف مساقات، وقد بلغت هذه الوجوه أحد عشر وجها تمثلت في: التقابل، التنظير، والتفريع، والاستشهاد، والاستنباط، والتكميل والاحتراس، واقتران المعنيين المختلفين في الوقوع التاريخي أو تجاور شيئين في الوضع المكاني، أو التلطف في الانتقال بحسن التخلص، أو بإمالة الصيغ التركيبية، وقد أتت الدراسة على ذلك(١).
- على الرغم من توفيق= د. دراز لتقريب كلام الباقلَّاني عن تأليف المختلف، وما حباه الله من قدرة فائقة على الاستيعاب، وعلو الهمة؛ حيث راح يستنسل من كلام الباقلَّاني أنساغا رطيبة مبهجة يفوح شذا عطرها يختلج الأرواح= إلا أنه – رحمه الله – عبر عن ذلك بلغة كثيفة مكتنزة، ومعان عميقة مركزة، ولم يضرب لذلك الأمثال(٢).
- رصدت الدراسة موقف الشيخين: دراز، وأبي موسى من الطباق أو التقابل بين المعاني؛ فأما الشيخ دراز فقد صرح بدخول الطباق ضمن تأليف المختلف صراحة، وأما الشيخ أبو موسى فقد استشعرت الدراسة رغبة منه في طيّ صفحة الكلام الذي يُقَرِّب الذهن من المصطلحات المصكوكة بعد الباقلَّاني، وكأنه يريد أن يبقى مصطلح "تأليف المختلف" مصطلحا خاصا، ونظيفا، وبكرا لم تكدره الدلاء(٣).
- الخصوصيات التي عددها الشيخ أبو موسى لتكون من آليات تأليف المختلف أربعة: توطئة آخر الكلام السابق لأول الكلام اللاحق، والتقابل، وأسلوب الشرط، وحسن الخلوص(٤).

(١) يينظر: صـ ٢٠ وما بعدها من هذه الدرسة.
(٢) يينظر: صـ ٢٠ ، ٣٠ من هذه الدرسة.
(٣) ينظر: صـ ٢٣ ، ٣٣ من هذه الدراسة.
(٤) ينظر: صـ ٣٢ وما بعدها من هذه الدراسة.

- وقفت الدراسة مليا تصافح آيات السورة الكريمة لتحدد معاقدها الكلية؛ فكانت ثلاثة معاقد: الأول من الآية الأولى حتى التاسعة، والثاني من العاشرة حتى التاسعة عشر، والثالث تمثله الآية العشرون(١).
- بلغ مجموع المعاني المختلفة في السورة الكريمة خمسة عشر معنى، وقد تقاسمتها فيما بينها معاقد السورة الثلاثة على اختلاف في الأنصبة، وتباين في الخصوصيات التي كانت السر في تأليف المختلف.
- ضمت آيات المعقد الأول للسورة الكريمة بين جنباتها ثمانية معانٍ: سبعة منها من باب تأليف المختلف، وواحد من باب تأليف المؤتلف، وقد وقفت الدراسة عندها، وبينت خصوصية التأليف بين هذه المعاني المختلفة، كما نبهت على تأليف المؤتلف من باب التأكيد على الفرق بين المطارح المتباعدة، والمعاطف المتساندة(٢).
- رصدت الدراسة خصوصية تأليف المختلف بين المعاقد الثلاثة الكبرى للسورة الكريمة: الأول والثاني من جهة، والثاني والثالث من جهة أخرى، وتمثلت هاته الخصوصية في توطئة الأكناف الذي يجعل آخر الكلام السابق موطئا لأول الكلام اللاحق(٣).
- رصدت الدراسة المعاني التي اشتملت عليها آيات المعقد الثاني للسورة الكريمة، وقد بلغت في مجموعها أربعة معانٍ مختلفة، ألف بينها شريف النظم وعليٌّ الضم، وتنوعت خصوصية التأليف بين هذه المعاني لتتقلب بين توطئة الأكناف والتقابل.
- معاني المعقد الثالث المتمثل في الآية العشرين من السورة الكريمة في مجموعها أربعة تآلفت بشريف النظم، وتقاربت بعليّ الضم، وتنوع خصوصيات التأليف ما بين التنظير والتفريع وتوطئة الأكناف(٤).

وصلى الله، وسلم، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين!.

(١) ينظر: صـ ٣٩ من هذه الدراسة.
(٢) ينظر: صـ ٤٣ ، ٤٨ من هذه الدراسة.
(٣) ينظر: صـ ٥٨ ، ٦٩ من هذه الدراسة.
(٤) ينظر: صـ من هذه الدراسة.

فهرس المصادر والمراجع

- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم د. محمد أبو موسى ط/٢ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.
- الأعلام للزركلي. ط/١٥ دار العلم للملايين بيروت ٢٠٠٢م.
- إكمال الإعلام بتثليث الكلام لجمال الدين الطائي الجياني المتوفى:(٦٧٢هـ) بتحقيق سعد الغامدي ط/١ جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.
- بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري بتحقيق حفني محمد شرف عن دار نهضة مصر من دون تاريخ.
- بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي بتحقيق محمد علي النجار طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامة بالقاهرة ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
- البارع في اللغة لأبي علي القالي بتحقيق هشام الطعان ط/١ مكتبة النهضة بغداد ١٩٧٥م.
- البيان والتبيين للجاحظ – طبعة دار الهلال بيروت ١٤٢٣هـ.
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة بتحقيق إبراهيم شمس الدين طبعة دار الكتب العلميو بيروت من دون تاريخ.
- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري بتحقيق حفني محمد شرف طبعة الجمهورية العربية المتحدة من دون تاريخ.
- التعريفات للشريف الجرجاني بتحقيق جماعة من المحققين ط/١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
- تفسير الرازي مفاتيح الغيب= التفسير الكبير ط/٣ دار إحياء التراث العربي ١٤٢٠هـ.
- تفسير السمعاني بتحقيق ياسر إبراهيم، وغنيم عباس ط/١ دار الوطن بالرياض– السودية ١٤١٨هـ–١٩٩٧م.
- تفسير الطبري = جامع البيان في تأويل القرآن بتحقيق أحمد شاكر ط/ ١ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

•تفسير ابن فورك بتحقيق سهيمة بخاري ط/١ جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
•تفسير مجاهد بتحقيق د. محمد عبدالسلام أبو النيل ط/ ١ دار الفكر الإسلامي الحديثة بمصر ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.
•تفسير مقاتل بن سليمان بتحقيق عبدالله محمود شحاتة ط/١ دار إحياء التراث بيروت ١٤٢٣هـ.
•تفسير الماوردي = النكت والعيون بتحقيق السيد بن عبدالمقصود طبعة دار الكتب العلمية بيروت من دون تاريخ.
•التفسير الوسيط مجمع البحوث بالأزهر الشريف ط/١ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م.
•التكملة والذيلة والصلة للصغاني بتحقيق إبراهيم الأبياري ط/١ دار الكتب بالقاهرة ١٩٧١م.
•تهذيب اللغة للأزهري بتحقيق محمد عوض ط/١ دار إحياء التراث العربي بيروت ٢٠٠١م.
•التوراة والإنجيل والقرآن والعلم للفرنسي موريس بوكاي ترجمة الشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية صـ ١٤٨ ط/٣ المكتب الإسلامي بيروت ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.
•تاج العروس طبعة دار الهداية بتحقيق مجموعة من المحققين من دون تاريخ.
•تاج اللغة للجوهري بتحقيق أحمد عبدالغفور عطار ط/٤ دار العلم للملايين بيروت ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
•جمهرة اللغة لابن دريد بتحقيق رمزي منير بعلبكي ط/١ دار العم للملايين بيروت ١٩٨٧م.
•دَرْجُ الدُّرَر في تفسير الآي والسور للإمام عبدالقاهر الجرجاني بتحقيق محمد أديب شكور ط/١ دار الفكر عمّان الأردن ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.
•دلالات التراكيب. د. محمد أبو موسى مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

•الديباج المُذْهَب في معرفة أعيان علماء المذهب لبرهان الدين اليعمري بتحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور طبعة دار التراث بالقاهرة من دون تاريخ.
•الروض الداني = المعجم الصغير للطبراني بتحقيق محمد شكور ط/١ المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
•السنة للمروزي بتحقيق سالم أحمد السلفي ط/١ مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٨هـ.
•صحيح البخاري بتحقيق محمد زهير بن ناصر ط/١ دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ.
•صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت من دون تاريخ.
•عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي بتحقيق محمد باسل عيون السود ط/١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.
•العين للخليل بتحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي طبعة دار الهلال من دون تاريخ.
•فتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين المقدسي بتحقيق نور الدين طالب ط/١ دار النوادر ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.
•فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب = حاشية الطيبي على الكشاف بتحقيق د. جميل بني عطا ط/١ طبعة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م.
•الفروق اللغوية للعسكري بتحقيق محمد إبراهيم سليم طبعة دار العلم والثقافة بالقاهرة من دون تاريخ.
•الكليات لأبي البقاء الكفوي بتحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري دار الرسالة بيروت من دون تاريخ.
•لسان العرب لابن منظور. ط/٣ دار صادر بيروت ١٤١٤هـ.
•المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده بتحقيق هندوي ط/١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.

•مجمل اللغة لابن فارس بتحقيق زهير عبدالمحسن سلطان ط/٢ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
•مختار الصحاح للرازي بتحقيق يوسف الشيخ محمد ط/٥ المكتبة العصرية بيروت ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.
•المستدرك على الصحيحين للحاكم بتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا ط/١ دار الكتب العلمية بيروت ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.
•مصنف ابن أبي شيبة = الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار بتحقيق كمال يوسف الحوت ط/١ مكتبة الرشد بالرياض ١٤٠٩هـ.
•معجم النقد العربي القديم لأحمد مطلوب، ط/١ دار الشئون الثقافية ببغداد ١٩٨٩م.
•معاني القرآن للأخفش بتحقيق د. هدى قراعة ط/١ الخانجي بالقاهرة ١٤١١هـ– ١٩٩٠م.
•مقايس اللغة لابن فارس بتحقيق عبدالسلام هارون طبعة دار الفكر بالقاهرة ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
•النبأ العظيم د محمد عبدالله دراز بتحقيق عبدالحميد الدخاخني ط/٢ دار طيبة بالسعودية ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م.
•نظم الدرر للبقاعي طبعة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة من دون تاريخ.
•الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي بتحقيق صفوان عدنان ط/١ دار القلم، والدار الشامية – دمشق، وبيروت ١٤١٥هـ.

ثامنـًا :
اللغويات